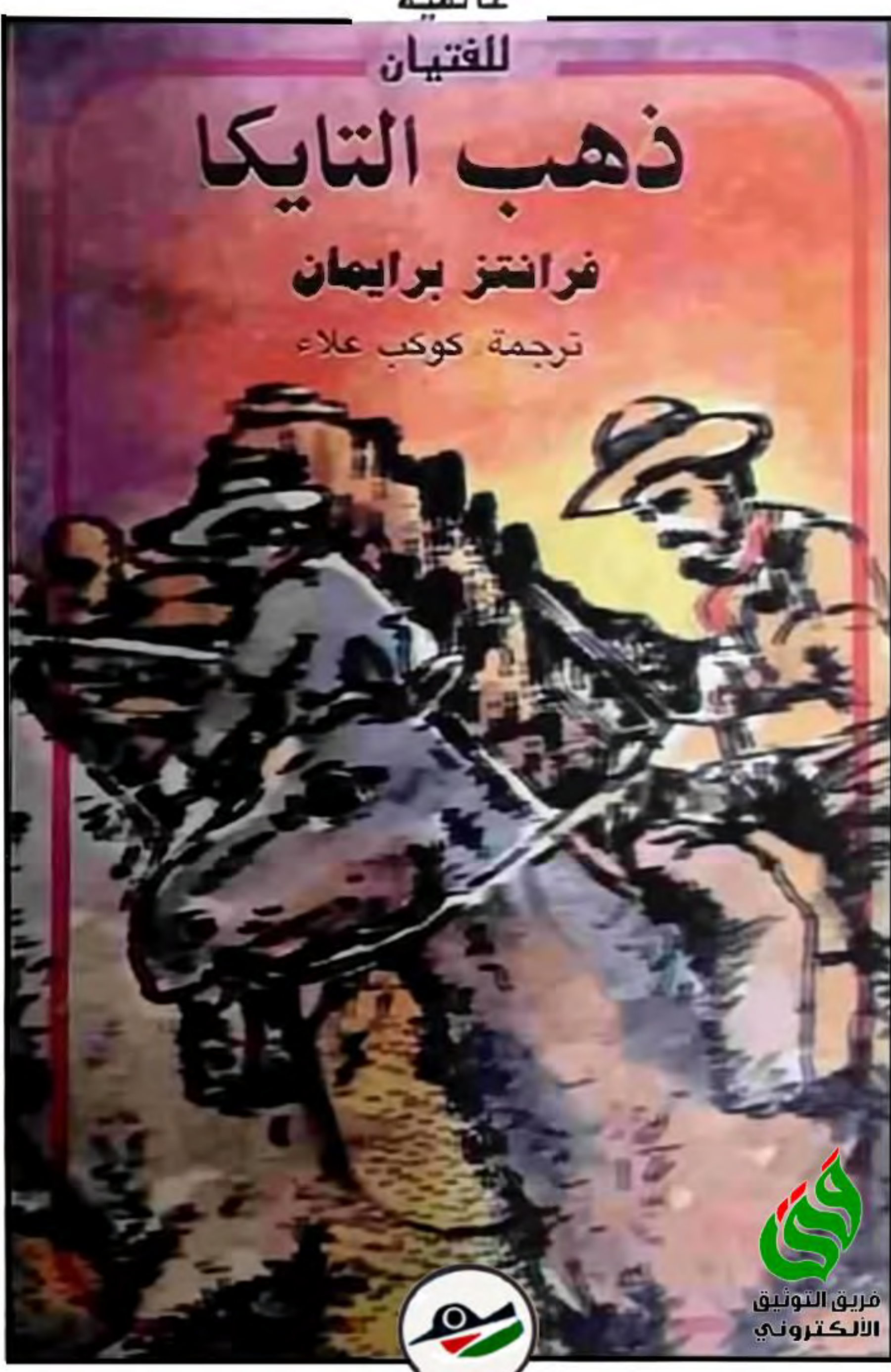
روايات
عالمية



ذهب التايكا

ترجمة: كوكب علاء احمد

فريق التوثيق الألكتروني

محمد رضا مهدي المؤمن

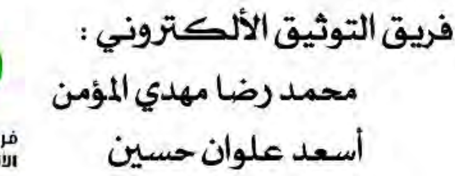
أسعد علوان حسين

ذهب التايكا
ترجمة: كوكب علاء احمد
الطبعة العربية الاولى ١٩٨٩

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام

روايات عالمية للفتيان

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف





ذهب التايكا

عبور ممر الن ـ دابا (Alan - daba)

حط المساء بخفة على جبال الالتي ، وتلألأت ملايين النجوم في سماء سيبريا مثل قطرات الندى فوق الاخاديد وقمم الجبال المصفوفة الموحشة، المنبسطة بهدوء لا يحتمل، وهنالك الى الأسفل منها اندمجت الوديان بغيوم من الضباب المتراكم .

الآن بدأ الضباب يرتفع وينتقل على نحو تدريجي الى داخل الشقوق الصخرية، وهبت ريح الصباح الجديدة العذبة عند سقوط ضوء النهار الاول على الجدار الثلجي الازرق الشاحب في الجانب البعيد من الوادي. أشرقت الشمس على الريف المغولي ناشرة شعاعها بعيدا لغاية ما تستطيع أن ترى العين.

هنالك على الانحدار البعيد خيمة، أصبحت الآن منظورة بعد أن كانت مختفية في ظل الساحل الصخري الرمادي الوعر. خلفها، في الاخدود الضيق الرطب سيج على ثلاثة جوانب بوساطة السواحل الصخرية الوعرة وبمدخل مسدود تقريبا بوساطة الجدار الصخري.

في هذه اللحظة صاح صائد الحيوانات العملاق، ثم طوى مدخل خيمته ماشيا الى الخارج، مد جسمه القوي ناظرا فوق جذار الصخر، ثم ركض بمرح فوق العشب بخطى واسعة الى الجدول الصغير، رش الماء على وجهه وصدره، ارتدى القميص ثم ملأ علبته المعدنية بالماء عائدا الى الخيمة، وقام بصنع نار صغيرة.

كان وجهه اسمر مثل الجلد المدبوغ، وكان من الصعب تخمين عمره ربما هو في الاربعين او الستين، اما

لحيتـه فكـانت متيبسة وعيناه الفولاذيتان تتفرسان بحزم حوله الى المسافة الواسعة المألوفة له.

كانت ملابسـه وقبعتـه الـواسعـة مصنوعة من الجلد الرمادي الداكن، أما جزمته العالية فمن الطراز الروسي. عندما بدأ الماء الذي في العلبة المعدنية بالغليان، وضع فيه بعض بيض الطيور الكبيرة لتسلق، ثم أخرج شريحة من الكيك من جرابه، وبدأ يمضغ مفكرا، وتفرست عيناه المتيقظتان منظر الصباح الصيفي الهادىء حوله.

الثعالب، السمور، والحيوانات الثديية اللاحمة والتي توجد هنا بكثرة، هي السبب في وجود صياد الحيوانات في هذه الصحـراء البـور لجبال سيليگيم، اما فئران الجبل والقوارض فكانت تعيش عند السهل المرتفع الخصب. في تلك اللحظة حط نسر كبير فوق السهل، رأسه صغير، منقاره مفترس، ينظر بحدة من جانب الى جانب عبر الفناء الواسع، وعند تلك اللحظة سقطت فأرة من فئران الجبل فريسة لمخالب هذا الكاسر.

صاح صائـد الحيوانـات العمـلاق مرة ثانية، كانت لوازمه وبندقيته داخل الخيمة محمية من ندى الصباح، سرج حصانه ولجامه خزنهما ايضا بعيدا عن النظر، كانت

أذناه متمرستين على اكتشاف أي شيء غير اعتيادي في هذا الريف الفسيح.

فجأة، حطم الصمت طلق ناري عند المنحدر الجبلي. وثب الصياد على قدميه وبحركة سريعة أطفأ النار الصغيرة ثم القى بنفسه خلف الصخر البالي بفعل الماء في ظل الخيمة.

بدأ دوي الطلق الناري يضمحل ثم السلام والصمت مرة ثانية. لم يظهر أحد فوق ربوة السهل المرتفع، لا عدو فرس ولا الاطلاق الناري. من أين أتى هذا الطلق الناري؟

كان صائد الحيوانات خبيرا بممرات جبال سيبريا جيدا، وكان يعلم جيدا انه لا أحد يحب أن يتسكع حول وادي النهر الازرق في مثل هذا الوقت من الصيف المبكر.

دلف الصّياد الى خيمته، شد حزامه، ثم قبض بيد واحدة بقوة على بندقيته ذات الروحين الطويلة، مشى بقوة وهدوء عبر العشب الناعم على طول انحدار الجبل الى السهل المرتفع. جثم خلف الصخور العالية، نظر حوله بحذر، ثم نهض على استقامته بهدوء.

كان مشهد لمعان الثلوج على قمم جبال الالتي العالية

تحت شعاع شمس الصباح رائعا، وكانت عينا الصياد الخبيرتان تفتشان عبر كل جوانب وادي النهر الازرق، منحدرا فمنحدرا، اخدودا فاخدودا.

رفع منظاره الحربي بعنف، كانت ملامحه مغشاة. استطاع أن يرى أخيرا وفي الجهة البعيدة للسهل المرتفع الواسع المرصع بالبحيرات الهادئة مجموعة من الرجال يهبطون مستعينين بأيديهم باتجاه وادي النهر الازرق. كانوا يتجهون الى منطقة غابات أشجار الصنوبر عبر الامتداد الموحش للأرض الصخرية.

بقي الصياد ممسكا بمنظاره الى عينيه ثم بدأ يحسب عدد هؤلاء الرجال الذين كانوا يهبطون باتجاهه، متطفلين على وحدته، في هذا العالم الخالي من السكان، سبعة.. ثمانية.. اثنا عشر.. ثلاثة عشر رجلا، هنالك أيضا شيء يتحرك بجانبهم، الان ولاول مرة استطاع أن يتعرف عليه، انها دابة نقل أو بغال، تنزلق نازلة عبر الطريق الخطر الخشن على مدى السيليكيم.

استند لحظة الى الصخرة الدافئة مفكرا: من أين أتى هؤلاء الغرباء؟ من الممكن أن يكون هنالك تفسير واحد، هو أنهم يريدون عبور مضيق (الالن دابا)، ولكن لابد

من وجود سبب لمرورهم باتجاه الشمال الشرقي بدلا من اتباع الطريق العادي الى تچنديگاتچك . كان الصّياد متعجبا كيف انهم قلهوا لعبور «الالن دابا» في هذا الوقت المبكر من السنة، انه منتصف حزيران فقط .

سؤال اخر تبادر الى ذهنه : من هؤلاء الرجال؟ ولمادا يتجولون في سيبيريا على طول الطريق الجبلي المحظور الذي لا يتردد عليه أحد؟ هل هم الكولمكس (kalmucks) من كوبدا (kobda) الأقليم الشمالي لمنغوليا الخارجية، ام الدنگنس (dungans) من دزنگارياDzungaria) الذين عبروا الالتيAltai) سابقا؟ ولكن الدنگنس ينحدرون من قوم رحل جوالين لصوص يعبرون الى سيبيريا لسبب واحد فقط :

الدهب في جداول وانهر جبال الالتي .

نهض بسرعة واستدار عائدا الى مخيمه، طوى خيمته، حاول أن يأخذ ما هو مفيد ما امكن حمله لكل موطىء قدم في الصخور، ثم تحقق مرة ثانية من سلامة الجدران الثلاثة الحامية، بدأ يركض بلا ترو عبر المنحدر المعشب الجنوبي للاخدود في حين كان الغرباء مستمرين بالاقتراب من البشمال الغربي .

وصل الى اسفل ضاحية المدينة في منطقة اشجار الحور الرومي، كانت الاشجار تبدو متباعدة عن بعضها ولكن في الحال أصبحت اكثر كثافة. استدار الى اليسار، ثم وبسرعة بدا يدير المهماز البارز للصخور دات الرؤوس الحادة المدببة لجهة الشرق. كان السهل المرتفع الهادىء يمتد الى يساره في المستوى نفسه، بحث عن المنحدر بوساطة منظاره الحربي، أخيرا وجد آثار الأقدام التي ارشدته الى الأرض دات الاشجار الخفيضة، كان الطريق مفتوحا مثل القمع الضيق داخل السهل. استطاع أن يسمع صوت طرطشة مياه وادي النهر الأزرق.

غسل الرمل بوساطة مياه الينبوع الهائج الممتد على حافات الصخر، وتلك مزارع الحنطة اللامعة كالدهب النقي، هل وجد هذا السلام ليقلق او يشوش من قبل هؤلاء المنقبين او الباحثين عن الدهب او المعادن الثمينه ذوي الجلد الاصفر الطماعين؟.

عادت اصوات صراخ الغرباء، حان الوقت لعبور المستنقع.

وهكدا بدا ينط من واحد من الدغل المتزاحم الى الاخر خلال الوحل الطيني النزر الخطر، بسرعة متجنبا أن يضع

قدمه في المكان الخطأ، فلا أحد ينجو من الوحل اللزج الغدار.

وعندما أصبحت الارض قوية بأشجار الشوح أو الشربين النامية هنا وهناك، توقف الصياد لاهثا ثم نظر الى الخلف، انه لم يترك أي أثر أو علامة على أرض المستنقع، واستقامت غابات القصب مرة ثانية.

وهكذا وصل الى الطريق المؤدي الى داخل الأرض ذات الاشجار الخفيضة، وبعد تفتيش وجيز أتى الى المكان الذي يتفرع فيه الطريق الى فرعين، الفرع الايسر يستمر باتجاه الغرب في المستوى نفسه، واما الآخر فيستمر مستقيما الى الأسفل خلال الغابة باتجاه وادي النهر الازرق.

ركض بسرعة الى الطريق القصير المؤدي الى الطريق الرئيسي الذي يقوده باتجاه الينبوع وبدأ يرخي الاحجار الكبيرة التي انبسطت بين أشجار الحور الرومي، فتدحرجت الى أسفل الجرف المائل، واحدة بعد واحدة، وكانت تبدو وكأنها تحركت مصادفة عند تجوال

الحيوانات، ابتسم لنفسه، ثم بعناية أزال آثار أقدامه ثم جثم بعمق داخل الاشجار الخفيضة، كان يعلم كيف يندمج مع محيطه مثل أي حيوان بري.

عند اقتراب أصوات الغرباء القى بنفسه الى الارض ضاغطا بوجهه الى الارض، وقد كان من الصعب تمييز ملابسه ذات الجلد الرمادي الداكن من ورق النبات أو الشجر المحيط به.

وهكذا وعلى بعد خمسين خطوة منه استطاع أن يراهم، رؤوسهم منحنية لتحمي عيونهم من وهج الشمس، وكان معهم أيضا أربعة او خمسة من البغال، ولاحظ وجود معاول وقدور منبسطة ربطت معا مع الرزم على ظهور هذه الحيوانات. مما لا شك فيه ان هؤلاء الرجال هم المنقبون عن الذهب، يفتشون عن الذهب سرا في سيبيريا عند جبال الالتي (Altai).

كان قائدهم في مقدمة المجموعة الصغيرة، وكان من اولئك المنغوليين طويلي القامة الذين ينتشرون في وسط قبائل الشمال الغربي في سنكينك(Sinkiang) ودزنگاريا

(Dzungaria) ، يظلل وجهه الذي لفحته الشمس نوع من القبعات المنغولية. واستطاع الصياد أن يلاحظ أيضا ان له جسما عضليا ، قويا جدا. أما ثوبه التحتي الصوفي فقد كان معلقا بحرفه حول كتفيه وكذلك سرواله كان رث جدا. وأما الشيء الوحيد الذي يستحق الانتباه لدى هذا العملاق انه كان يحمل بندقيه تشبحان روسيه نفيسه.

وكان يمشي خلفه بصمت بقية المنغوليين الآخرين، لتقى الصياد كثيرا بمثل هؤلاء الرجال، متشابهين في المظهر والخرق التي يرتدونها، هنالك في الشرق يعيش الملايين منهم.

منع تشابك الاشجار الخفيضة الصياد من الرؤية، ولكن عندما رفع رأسه قليلا بحذر لاحظ انهم بدأوا بالهبوط باتجاه وادي النهر الازرق في تلك اللحظة صاح الصياد بصوت عال:

اوهووا . . . اوهووهووا.

على الرغم من ان فمه كان مطبقا على الارض، ولكنه استطاع أن يقلد صوت البومة (طائر النمس المشؤوم) على

نحو متقن .

عندئذ وقف المنغوليون عند ذلك الطريق ، صامتين من الفزع الخرافي محملقين حولهم .

عندها سمع الصياد كلمات مختصرة قليلة ثم ضغط بنفسه الى الارض مرة ثانية ، كانت الأصوات المتبادلة بين المنغوليين بعيدة ثم أعقبها صمت. تفحص احدهم (ربما القائد) الجحور الرطبة المتروكة بوساطة الحجارة التي تدحرجت، في حين وقف الآخرون بالقرب منه حائرين .

هل اكتشفوا دليلا على وجود الصياد في الجوار؟ أم هل اكتشفوا فجأة الهوة المنحدرة؟

توان من الفلق الحاد، تنفس من دون أي صوت، فتح فمه بخفة غير متحرك ما عدا سبابته التي كانت تبحث عن ماسك أمان بندقيته. في تلك اللحظة استدار المنغوليون الى الخلف. يبدو انهم لاحظوا التفرع الآخر من الطريق، الآن بدأوا بالثرثرة بخشونة، كان قائدهم يتكلم بصرامة وصوت آخر كان يبدو انه يجادله، بعد ذلك جاء صوت يشبه صوت المعدن على الحجر ـ القائد

كان يؤكد كلامهم بضرب الأرض بمؤخرة بندقيته.

يبدو أن ملاحظته الاخيرة كان لها تأثير، وهكذا تحركت المجموعة، وارتحلوا مرة ثانية.

تساءل الصياد:

- «أين يذهب هؤلاء اللصوص ذوو الجلد الاصفر؟».

ووجد نفسه يرتجف بقلق فيما اذا كان هنالك اي حركة اقتراب خطوات من مكان اختبائه. ولكن بعد ذلك علم بانهم اتجهوا الى الطريق الذي استداروا اليه الى اليسار على طول جانب الجبل.

كان مذهولا بالمفاجأة، فرحا جدا.

لن يهبطوا الى وادي النهر الازرق بعد ذلك.

مرّ (الدنگينيون) بالقرب منه على بعد عشرين خطوة تقريبا، ولكنه لم يقاوم من أن يرفع رأسه ولكن بحذر، وعندئذ:

«اوه! ولكن ماذا يفعل هذا الاوربي مع هؤلاء بحق السماء؟»

لقد شاهد الصياد وجود رجل أبيض اوربي كان يمشي

خلف المغوليين، كان يبدو صغيرا وقويا، أما ملابسه الجلدية فكانت تبدو جديدة نوعا ما. شعره أشقر ووجهه ملوح قليلا. توارت المجموعة حول المنعطف، ولكنه لم يتحرك مباشرة ـ أخيرا عندما نهض على قدميه كان يبتسم برقة، لا أحد سوف يزعج أو يشوش سلام وهدوء وادي النهر الأزرق.

مطاردة على طول التايگا

لم يكن الرجل الأبيض الذي يسير عند مؤخرة مجموعة المنقبين عن الذهب روسيا. كان اسمه (بيتر سيملنگ) (Perer Semling) ولعلها حالة غريبة التي جعلته مع هذه المجموعة من ذوي الجلد الأصفر الرحل. ولكن كانت له عدة مغامرات غريبة سابقة مما جعلته يلتقي في أواسط قارة اسيا الواسعة.

بعد ساعات سفر قليلة على طول ممر (الآن دابا)(Alan daba ، تركوا الطريق الواضح المحدد الذي يقودهم الى الاسفل الى داخل التايگا(Taiga) ومضيق الجدول السريع .

لماذا يصرون على اتخاذ الطريق الخطأ؟ انه شيء غامض جدا . لقد شعر بقلق واضطراب عدة مرات . وعلى أية حال فلديه بندقيته ، وذخيرته مربوطة عند خصره، وهنالك الحقيقة التي يعلمها كل واحد في الاورمج (Urmchi) والاورگا(Urga) . هو أن لبيتر سيملنگ طلق ناري جيد لا ينكره أحد .

بعناء استطاع أن يتخلص من قلقه واضطرابه ، صفع البغل الذي أمامه على جنبه الناعم ثم بدأ بالتكلم الى الرجل الاصفر الذي بجانبه فسأل قائلا :

- «هل تعرف هذا الوادي يا تسچنك لي (Tschàng - li) ؟» هز الدنگيني ذو الشعر الغامق رأسه «كلا» أجاب بكلام مبتور مختصر .

- ولكن بالتأكيد هذه ليست المرة الاولى التي تزور فيها

الالتي؟ ألا تذهب أو تمر دائما على هذا الطريق نفسه؟

ـ «كـلا» أجاب بالنغمة نفسها، كانت خطواته قويه حذرة سريعة، بعدئذ بدا وكأنه شعر بفظاظة جوابه فادار رأسه بخفة ودمدم: ـ «أنا أمر دائما على الجانب الآخر عبر وادي السچن ـ چي ـ سزي(Sjan - che - szy) يا سيدي».

لم يستطع بيتر سيملنگ أن يفهم اللهجة المنغولية جيدا ليترجم الاسم على الفور فسأل بمرح:

ـ ما هذا الـ سچن ـ چي ـ سزي؟

ـ «وادي الينبوع المتدفق»، أجاب الدنكيني.

في تلك اللحـظة أدار بولانگا(Pulanga) رأسه فجأة، لمعـت عينــاه على سيمـلنلگ، ثم زعق بكلمات قليلة مختصرة فظة وامره مشيرا الى (تسچنك لي). تسچنك لي حنى رأسه الى الأسفل قليلا بفزع واضح ثم سكت ولم يتكلم مرة ثانية.

كان (سيملنـگ) كثيرا ما ينفد صبره، ولكن مع هؤلاء الناس كان من العبث أن يصيح او يجادل. انهم ليسوا الا أنـاسـا منعـزلـين إلى داخل صمتهم حتى أصبحت

وجوههم كالاقنعة، فقد كانت لديه تجارب كثيرة على ذلك.

الطريق الذي أرشدهم الى المنحدر والذي كان ممهدا باعتدال، أتلف فجأة. فقد بدا الشريط الصغير وكأنه وصل الى نقطة برية حادة وأصبح انحدار الطريق مقلقا. كانت البغال تترك لتصنع طريقها، في تلك اللحظة ارتخت حجارة وطقطقت الى أسفل الوادي.

أمر القائد بالوقوف، ثم صاح «سزي - چو - ان».

خفف الدنگينيون الحمولة من على ظهور الحيوانات بصمت وخضوع، والقى كل منهم برزمته على كتفه قبل مواصلة تقدمه على طول الطريق الضيق، والذي كان يكاد لا يكفي عرض أقدامهم كل الى جانب بغله.

أوسع الخطى عند بداية الموكب، فقد شعرت الحيوانات بالامان فبدأت تتحرك بسرعة اكثر، في حين كان المنغوليون على الجانب الآخر، ملزمين بالسير بحذر.

الان هنالك مجموعة من الصخور الكبيرة بالية بفعل الماء من صخر الغرانيت، عند علو ثلاثة فيتات(Feet)،

سدت الطريق، وبذلك فالمسألة لم نعد مجرد هبوط منحدر.

نادى الدنكينيون محذرين بعضهم البعض لا أحد منهم يتجرأ بالتأخر عن الخطوات الواسعة النشيطة لقائدهم الذي كان يسير أمامهم. وكان ينظر حوله بين وقت واخر ليقدر المدة التي يحتاجها للوصول الى حفيف التايگا، غابات الصنوبر التي لا نهاية لها لا يمكن اختراقها منبسطة بعيدا الى الأسفل منهم.

صهل أحد البغال بقلق، لقد داس فوق حجر رخو ثم وثب الى الامام برعب. اهتز الدنكيني (تسچنك لي) الذي كان يمشي في نهاية الخط الى الامام - كأن يمسك بلجام الحيوان ولم يكن مدركا لهذه الحركة المفاجئة عندما استدار وداس على الحجارة الرخوة تزحزحت، أعقبها صياح حاد من الفزع مزق الصمت عند تدحرج الصخرة الى الاسفل، آخذة معها (تسچنك لي).

أنشب الرجل بجنون أصابعه في الهوة العمودية، فاستطاع أن يتشبث مدة ثوان قليلة بادغال العشب،

ولكنها ترتفت من صدمة يائسة. بدت عيون الآخرين منتفخة في محاجرهم. في حين كان (تسچنك لي) يلهث مثل تعرير.

عندما رأى (بيتر سيمننگ) (تسچنك لي) وهو يسقط تدفع في أثره باتجاهه. حملق في الأسفل عند الجرف الصخري بسطح حجارته المهدومة المرتخية تحت الحجارة التي بقيت ستدفع بقوة. لاحظ (بيتر) رسم الأصابع اليائسة المنزلقة، واشجار الصنوبر القصيرة على بعد حوالي ستة قدمات في الأسفل. هل من الممكن أن تصمد اذا تعلق بهما رجلان؟ على أية حال ليس هنالك وقت للتفكير. الخطوة القادمة انه سوف ينزلق الى الاسفل فوق حافة الجرف الصخري عبر الموضع الذي بقي (تسچنك لي) معلقا فيه بسكون. قبض بأصابعه على جذع شجرة الصنوبر الصغيرة عند مروره بها، ثم حاول أن يبقي انحناءة الشجرة ملتوية، وهكذا بقي معلقا بين السماء والارض، لا يجد له مركزا ثابتا.

كان الوضع متهورا، بدأ العشب ينقطع عن

(الدنكيني) ثم بدأ بالانـزلاق بيأس الى أسفل الجرف الصحري، عند لحظة سقوطه خطفه (بيتر سيملنگ) من معطفه البالي موقفا سقطته. أمسك بقية المنغوليين بشجرة الصنوبر السوداء الصلبة لجعل الوضع اكثر أمانا، ثم تسلق رجلان الى الطريق الخلفي منفردين، رموا بالحبال، وبمعونتهم استطاعوا مساعدتهما على صعود المرتقى الصعب.

تحركت المجموعة مرة ثانية بعد مدة من الراحة الوجيزة، عندئذ نظر (تسچنك لي) الى (سيملنگ) وأمسك بحاشية سترته وبسرعة تمتم بكلمات شكر مختصرة فظة.

شعر سيملنگ بانشراح بسبب هذه المغامرة الصغيرة التي حطمت النسق الممل بالنسبة له ـ وتساءل: ماذا يعني انقاذ رجل عند الشرق؟

وصل المنقبون عن الذهب الى حافة التايگا عند انتصاف النهار، هنا تنحدر الجبال ممتدة الى الخارج لغاية ما تستطيع أن ترى العين كمحيط أخضر هادىء، تمتد

من افق الى افق. الوديان والمضايق والاخاديد الفسيحة للجبال، الريف هنا خال من السكان كلية، أشجار وجبال هذه البرية عظيمة، أي شخص يجازف بترك الطريق الضيق ويخترق الى داخل العمق الصامت من الغابة يجب أن يكون منقبا عن الموت الحتمي.

تحركت الاشجار الاولى التي أتوا اليها عندما هبطوا مستعينين بأيديهم مما حرك شعورا من الحنين الى الوطن غير متوقع لدى (بيتر سيملنگ). وفجأة شعر كما لو أنه يبعد الاف الأميال عن وطن الطفولة.

تأمل حوله لحظة سحب الخارطة التي طواها بعيدا في احدى الرزم، ولاحظ موضعه عليها، انه بعيد، بعيد جدا الى الغرب. ولكنهم استداروا الى الشرق بعد عبور مضيق (الالن دابا)، وبعد ذلك الى الجنوب شعر بالغيظ للمرة الثانية، وفجأة تكونت فكرة جديدة في ذهنه. اتخذ (بيتر سيملنگ) طريقه الى جانب (بولانگ) عاقدا النية:

ـ «أنا فكرت وحكمت عقلي، بولانگ، هو بدأ بالتكلم ببطء بخليط من اللغة الروسية والمنغولية. «أنا لا

استطيع أن أذهب عبر هذا الطريق الى منبع نهر الارجت Argut وهكذا فقد قررت أن أرتحل وحدي بأمان، الى الغرب فوق الجبال. هل تجعلني احد رزمتي؟ انها فوق البغل الثاني، وسوف أدفع لك لقاء خدماتك الآن . » .

صمت العملاق الدنگيني بعض الوقت ليفهم ماذا يعني، ثم تساءل بارتياب :

ـ «انت تريد أن تتركنا؟ تأخذ معولك ومنخلك وأشياءك لايجاد الذهب؟» .

ـ «هذا صحيح» .

ـ «وتترك منقب الذهب الدنگيني المسكين وحده؟» قال محتجا .

ـ «أنت لن تكون وحدك بولانكا، فأنت تمتلك أحد عشر رجلا» .

ـ «وكيف نجد الذهب والرجل الروسي يأخذ أشياءه معه لايجاد الذهب؟» .

فجأة تكونت لدى سيملنگ فكرة بأن الدنگانيين يعتقدون بأن معداته (معدات فحص حجم ذهب

الصخور والرمال) مزودة ببعض الطرق السحريه لايجاد الذهب. حاول أن يشرح لهم بأن معداته ليست أفضل من معداتهم لايجاد الذهب، انها فقط تستطيع ان تختبر كمية ذهب الصخــور والــرمـال، لا أن تخـبرهم أين يبحثون. ولكنه تخلى عن هذه الفكرة مدركا بأن الناس الفطريين لن يفهموا هذا ابدا.

اقنع نفسه بابتسامة ثم قال بهدوء:

- «انها ليست كذلك بولانكا، دعني فقط آخذ رزمتي.».

تجمد قائد الدنكن في طريقه ثم لوح بذراعيه قائلا:

- «ماذا سيأكل السيد الروسي؟ السيد الروسي يجب أن يأكل!».

فجأة اصبح سلوكه رقيقا متذللا مما جعل (سيملنگ) يتردد قائلا:

- «حسنـا، سوف آخـذ بعض الـرز وشرائح الكيك معي، و. أشار الى بندقيته «وسوف أصطاد الطيور ولحم الصيد».

- «السيد الـروسي سوف يضل، التايكا كبيرة، غابة

عدائية، لا يوجد أناس عديدون يأتون ليعيشوا فيها.» ردّ القائد وكأنه مهتم بشدة على سعادة الرجل الأبيض.

شعر سيملنگ برجفة نمت عند عموده الفقري، وشعر الآن بأن الرجل الاصفر محتال. بقرار فجائي وثب الى البغل:

- «أنا آسف بولانكا، ولكن لا تؤخرني اكثر من هذا».

ولكن وبعد ثانية واحدة تمايل من صدمه على رأسه الى الارض، ثم لهث بشدة: «أنت خنزير!» دار حول نفسه ولكن قبل أن تستطيع يداه أن تمسك ببندقيته كانت أصابع يد أخرى قد أطبقت عليها، ولكنه هزها مرّة ثم بدأ: «من يريد..» ولكن قبل أن يستطيع أن ينهي تحديه وثب عليه أحد الدنگانيين بقوة من الخلف، عندئذ خرجت رصاصة أولى غير مؤذية الى داخل ورق نبات على مقربة من شجرة الارز.

وثب الدنگانيون عليه من كل الجوانب، ألقوا به الى الأرض وامسكوا بذراعيه وساقيه، لكمة قبضة قوية وجهت الى داخل وجهه فسال الدم الدافىء يملأ فمه

وأنفه .

جمـع قوتـه واهتز محررا واحدة من ساقيه، وهكذا استطاع أن يبعد المعتدين عن رأسه وكتفيه، كان همّه لو يستطيع أن يحرر يده . . ولكنها بسطت مشبوكة خلف ظهره، فصاح بشدة :

ـ «أنت شيطان . . »

ضغط وجهه النازف على الارض، الآن أصبحت يده اليمنى حرة، طلق ناري ثان، وثـالث، وعندئذ ضرب رأسه الى الخلف فاصبح سيملنگ فاقد الشعور مرميا على الأرض .

عندما صحا سيملنگ قليلا علم بانه سحب وتدحرج على طول الارض، كل شيء يبدو كالحلم، كل شيء لمع في داخل دوامة من الغشاوة على النظر من اللاوعي . ذابت الارض تحته وشعر كأنه معلق عند ارتفاع عال من عالم وهمي .

تدحرج ببطء وهذا ما جعل الوعي يعود اليه لحظات وجيزة، ووجد ان ما أيقظه حالة عنيفة من الغثيان، تقيأ

ثم رجع حالا . رفع رأسه فاحتك بألم بلبده النعل ، وهج الشمس خطف بصره في البداية ولكنه تعود على اتساعه شيئا فشيئا ، ثم انهار مغميا عليه مرة ثانية .

كان قد حلّ الظلام عندما استعاد وعيه . وكانت أشجار نبات مورق قد أخفت السماء . . استطاع ان يسمع هسيس النار في مكان ما بجانبه ورأى أن ضوء النار يشرق على سيقان الاشجار .

حاول غريزيا أن يستدير الى الجهة العليا اكثر ولكنه لم يستطع ، انه يستطيع ان يحرك رأسه قليلا فقط ، فساقاه ربطتا معا ، ويداه قيدتا الى جسمه ، تدريجيا تذكر ما حدث ، كان رأسه يؤلمه بشدة ووجه يوخزه نتيجة جروح عديدة . حرّك يديه وساقيه قليلا بحذر - يبدو انه لا توجد هنالك عظام مهشمه . تنفس بعمق ، تحتر من الدم ملتصق عند بلعومه مما جعله يسعل لدرجة جعلته أن يبصقه الى الخارج .

بعد ذلك بلحظة ، كان (بولانكا) واقفا امامه ، مفكرا في سجينه الى حين ثم قال باستهزاء :

ـ «السيد الروسي القوي استيقظ الآن؟ لماذا لا تتركنا أيها السيد الروسي؟».

لم يجب (سيملنـگ) أخـيرا تركـه (بـولانكا) وأوسع الخـطى مناديا الدنكنيين، حالا جثم أحدهم عند النار المشتعلة ثم نهض وجلب الـرز مع اللحم ودفـع به الى داخـل فم سيملنـگ. اكل السجين بامتنان، لأنه كان جائعـا جدا ثم طلب ماءا باقتضاب فجلب له. وهكذا استنتج بأنه لا يوجد غرض لقتله.

انتصب (بولانكا) قرب النار ثم بدأ يتحدث:

ـ «اذا لم يكن السيد الروسي يريد أن يتركنا فلا أحد سوف يمسك به، لقد أتينا الى هذه الارض الغريبة من أجل الذهب، أتينا على طول الطريق المحظور بمساعدة حارس الحدود الروسي لأننا نأمل أن نحصل على ذهب اكثر. السيد الروسي يعلم أشياء عديدة، انه يعلم عن الـذهب اكثـر من الدنگانيين المساكين. هو يجلب ماء السحر ومعداته وسنرى عبور السيد الروسي لمضيق (الان دابا) المخيف. الآن عليه أن يرينا الذهب. الكثير من

الذهب.».

لقـد أخذ هذا من (بولانكا) بعض الوقت ليعبر عن هذه الافكار بمزيج من اللغة الروسية والمنغولية. على أن (سيملنگ) لم يكن يحتاج الى أي صعوبة ليفهم فحوى مناقشته. هزَّ رأسه من دون جواب.

واصل (بولانكا) بلهجة مهددة:

- «اذا فكـر السيد الـروسي جيدا فانـه سوف يرى الأسبـاب، نحن نستطيع أن نعطيه الحياة أو الموت. بولانكا ينتظر أن يسمع.».

بدأ «سيملنگ» يشعر بثقة أكثر، ابتسم قائلا:

- «انـك لن تستفيد شيئا من موتي، ربما تستفيد من حياتي. ولكن اذا أردت أن أستمر معك فلابد أن تحل وثاقي، هزَّ بولانكا رأسه:

- «الذهب أولا، أيها السيد الروسي!» قال بعناد.

- «لن تحصل على كثير من الذهب وأنا مقيد.» أجاب سيملنگ.

أصبح وجه (بولانكا) شاحبا من شدة الغضب:

ـ «نحن لن تجرجر السيد الروسي معنا طويلا. يوم واحـد، ربـما يومان. بعد ذلك سوف يسقط الى داخل شلالات أو تيارات النهر ويغرق».

في أثناء ذلك حاول (سيملنگك) ان يركز نظره في عيني (تسچنـك ني) ولكن الرجل كان يجلس في مكان بعيد خافضـا رأسـه متفـرسا في النار. لم يقترب منه أحد بعد ذلك، نظر الى الجانب الآخر للنار فاستطاع بضوئها أن يرى وجه قائد الدنكن الشيطاني الصارم من دون قناع التـذلـل. أمـا بقية الرجال فقد كانوا جالسين رؤوسهم منـدسـة في صدورهم يدمدون معا بأصوات فظة قاسية جافـة بنعتهم. لم يفهم (سيملـنـگك) أي شيء مما كانـوا يقولون. عندما انطفأت النار غرق الدنكينيون في النوم واحـدا بعـد واحـد، ووجـد (سيملنـگك) نفسه الساهر الوحيد. قيده كان قد ترك اثاره على جسمه بنحو مؤلم وكان رأسه يؤلمه بشدة وشعر عندئذ بأن الجو شديد البرودة الى درجة أن أسنانه بدأت تصطك.

كان لديه وقت كاف ليفكـر في الأشهر الماضية التي

خطط فيها لهذا المشروع الخطير الذي اتخذ هذا النحو سؤال تبادر الى ذهنه حول مستقبله وهذا ما جعله يبقى مستيقظا. كان متأكدا من عدم وجود أي طريق للخروج من حالته المقلقة عدا الهرب، ولكن قيود يديه ورجليه؟ وكيف يستطيع أن يأمل بالهرب تحت تطفل اثني عشر دنكيني من ذوي العيون الحادة والآذان الحاذقة؟

تقدم المساء، مساء سيبيريا الشاحب. استطاع أن يسمع صوت اندفاع الماء في مكان ما. وصياحا حادا لطير عند قمم الأشجار، وما عدا ذلك فقد كان هنالك سلام وهدوء غير مزعج.

هل سقط نائما؟ احد ما أمسك بيده، أدار رأسه.

- «هش! السيد الروسي، اسكن تسچنك لي، سوف يعود. بعد ذلك.. بعد ذلك.. في الجدول لا آثار أقدام».

قبل أن ينزلق (تسچنك لي) بعيدا مثل الافعى، ضغط بوجهه مرة الى حاشية چاكيت (سيملنگ). بعد ذلك بقي ساكنا وغالبا من دون تنفس دقائق قليلة، أدار (سيملنگ)

رأسه، اختفى (تسچنك لي) لا شيء متحرك حوله، كان خيال ذوي الجلد الاصفر وهم متراكمين يشبه رأس بصل كبيرا في الظلام الشاحب. سيملنگ استطاع ان يسمع صوت تدفق الجدول خلال المضيق باتجاه الوادي الواسع الفسيح.

مرة ثانية شعر (سيملنگ) بالحيرة المتهيجة، هل كان هذا مجرد حلم؟ حرّك ساقيه متوقعا شرا، انهما ما عادتا مربوطتين عندما رفع ذراعيه تدفق الدم الدافىء مرة ثانية الى المكان المخدّر.

انه حر!

انتصب واقفا بهدوء وانتظر أن يتوقف قلبه عن الخفقان ـ الى أين يجب عليه أن يهرب؟ ساعدته الليلة المقمرة لتحسس طريقه خلال برية التايگا ـ امله الوحيد هو الوصول الى الجدول، في المكان الذي يستطيع أن لا يترك فيه آثار أقدام أو تعقب مطارد.

ولكن . . انه من دون طعام ومن دون بندقية أيضا. هل يتجرأ أن يذهب وحده الى داخل الارض البور المظلمة

التي لا نهاية لها؟ بشكل او بآخر يجب أن يحاول استرجاع لوازمه وبندقيته.

وفي تلك اللحظة التقط اشارة من حركة النار، رجل وقف، وقف بيتر سيملنگ ساكنا واستدار باتجاه الحجارة، عيناه كانتا حادتين عندما حاول أن ينظر خلال الظلام. هل لاحظ الرجل انه تحرك؟ من غير الممكن له أن يعود الى وضعه السابق.

تمطى الرجل ببطء. كان من المستحيل لسيملنگ أن يعرف الى أي اتجاه كان ينظر، لم يتحرك أحد من الاخرين، شعر سيملنگ أن رجله اليمنى بدأت تتخدّر تدريجيا عندما كان جاثيا نصف جالس نصف واقف. اخيرا اتخذ المنغولي خطوة باتجاهه. بيتر سيملنگ عرفه في الحال انه بولانكا!

تمشى بولانكا الى سجينه، بيتر سيملنگ لم يكن يعلم فيما اذا استطاع بولانكا أن يرى خياله المختفي خلف الاشجار الداكنة، عضلاته كانت مشدودة، يداه منقبضتين، كز على أسنانه، بولانكا على بعد أربع

خطوات: ثلاث، اثنتان . . فجأة قفز الى الخلف صائحا بخـوف وتعجب قبل أن يسقطه سيملنگ الى الارض، أمسكت يد سيملنـگ ببلعـومه بقبضة من حديد ولكنه سحب خنجـره في التو، برق النصل ولكن «سيملنگ» تفـادى اليد التي حاولت ضربه في الوقت المناسب تماما الضربة القوية على صدغه جاءت متأخرة لتمنع صراخه الـذي حطم الصمت ولكن الضربـة كان لها أثـرهـا. «بولانكا» سقط لاهثا.

قفـز المغـوليون عنـد سماعهم صوت صياحه، كانوا مرتبكين مولولين

«يجب أن أهرب» فكر سيملنگ بجنون فقد رأى الخنجر يلتمـع في الـظلام الى جانب «بـولانكا» وثب الى جانبه واختطفه ثم ركض خلال الأغصان الكثيفة التي ضربت وجهه. فجأة بدا وكأنه دخل في الفضاء وسقط على رأسه بشـدة، الهبـوط لم يكن اكثـر من ستـة فوتـات، ركض باستمـرار لاحت أمـامـه في الافق شجرة كبيرة وعريضة وبمساعدة يده اليسرى كان يتلمس طريقه وعندئذ أحس

بأن يده اليمنى قابضة على الخنجر فدفعه الى غمده في داخل حزامه الجلدي لكي تكون يداه حرتين.

بعد ذلك هبط مستعينا بيديه الى الهوّة العمودية، وكانت الحجارة المتفككة تصل تحت أقدامه مع كل حركة يصنعها، الاغصان تكسرت عندما مرّ عليها، وبقي مسرعا في المشي. أصبح صوت اندفاع الماء اقرب وأقرب ولكن تبادر الى ذهنه الآن قلق جديد، هل ان ضفة الجدول واقفة الانحدار صخرية؟ هل سيستطيع أن يصل الى الماء؟ هل أن التيار الشديد سينقله بعيدا في الحال؟ واذا نجح في الوصول الى الجانب الاخر هل سيستطيع أن يتسلق الى الخارج مرة ثانية؟

هنالك كان امامه جدول سريع جدا امتد متألقا بالقرب منه، وكان عميقا نوعا ما، قدماه لامستا القعر، بسرعة وبضربات قليلة سبح الى السطح ونظر حوله، كان يستطيع أن يرى ضفة الجانب الأخر، كان عاقدا النية على أن يسبح باتجاه الصخور السود على الساحل البعيد، وهكذا استمر بالسباحة حتى وصل الى غصن داكن لاح

في الافق اختطفه وأمسك به. لم يكن من السهل أن يسحب نفسه الى فوق الضفة فاصابعه الرطبة كانت تنزلق على السطح الخشن وملابسه ثقيلة بالماء وبجهد نهائي سقط متأوها على الضفة البعيدة.

قرر (سيملنگ) أن يأخذ قسطا من الراحة ثم يستمر بالتقدم مع بصيص من ضوء الفجر الاول. كان يعلم بانه من العبث لمطارديه أن يبحثوا عنه في هذا الظلام من دون تتبع آثار أقدامه، لذا فقد خمن ربما انهم سوف ينتظرون في مكان ما بالقرب من الجدول على الضفة الاخرى حتى الصباح. قرر (سيملنگ) بعد تفتيش وجيز عن المضيق أن يقضي ليلته فيه.

عند الصباح انتشر ضوء الشمس فوق تخوم الجبال المنغولية، تسلق الجرف الصخري للمضيق، وهذه كانت الطريقة الفضلى للتخلص من مطارديه. تسلق من دون توقف، ثم توقف قليلا ليتحسس ملابسه الرطبة ثم تفرس في الرّيف المحيط بقمة الجرف الصخري محاولا أن يتقن التسديد في المكان الذي ترك فيه الدنكنين ولكن كانت

قمم الجبال متشابهة لذلك فقد كان لا يستطيع أن يتأكد .

امتـد الوادي والجبل أمامه بانحدار مسالم، العصافير الصغيرة كانت تغرد من حوله، واندفع عصفور الحسون من حولـه في الهواء كالسهم، كانت الأرض تحته رطبة فنبتت حشائش السعال ما بين مجاميع الدغل الكثيرة من الراوند المزهر البري . أما الصخور العارية فقد غطاها لون متلألىء لنبات من فصيلة الدفلى المزهرة .

شعر سيملنگ بأول قرصة جوع عند منتصف النهار، ولكن ليس هنـالـك أية فواكه في هذا الوقت المبكر من الصيف في التـايگـا، والـوصـول الى الـوديان الخصبـة بالسكان والطعام يبدو بعيدا وصعب المنال .

فجـأة هرب طير من بين أشجـار الظل الصغيرة الى الغـابـة مرفرفا بجناحيه بقوة، كان حجمه يوازي حجم ديك الجبل ويقوق مثل الدجاجة، لقد خرج من موضع قريب من قدم (سيملنگ) تماما . وهكذا فرق الشجيرات المزهرة حتى وجد عشا فيه بيضات رقطاء رمادية . وهذه أشبعت جوعـه بفخر، ولكن بينما كان يكسرها ويبتلعها

كان يفكر بالمشاكل الجديدة القادمة فهو بعد كل هذا لم يتغلب على الآف العــوائق للوصــول الى برية الالتي السيبرية، وبصرف النظر عن ابتلاعه للبيض الخام فمن المحتمل انه سيموت جوعا في النهاية.

كان من المستحيل أن يقدر المسافة التي أمامه ليجد أي مخيم او مستوطنة، لقد كان لديه مال مخيط الى جاكتته الجلدية لكنـه ليست له أية قيمـة في وقته الحالي فهو لا يستـطيع أن يأكل المال. وهو من غير معداته لن يصبح سوى منقب عن الذهب بائس، حتى اذا وجد الذهب فانه سوف يسلم معظمه الى حراس الحدود السيبريين.

فجأة بدأ المستقبل له غير محقق، اليوم قد وجد بيض الطيور البرية ليأكله، ولكن هل ستكون هنالك أعشاش اخـرى تنبسط بهذا الأسلوب الجذاب جدا عند أقدامه غدا؟ فضلا عن ذلك هنالك الدببة في (الالتي)، وهنالك أيضا النمور السيبرية في الاجزاء النائية، واما هو فمسلح بالخنجر فقط. على انه حاول أن يقنع نفسه بانه في مثل هذا الوقت المبكر من الصيف يكون لدى هذه الحيوانات

اكثر من فريسة كافية لاشباع جوعها.

فجأة شعر بالغيظ، انه لا يريد أن يقر بعجزه من غير محاولة ابعد، وهكذا قرر أخيرا بأن يحاول استرداد ممتلكاته من الدنكينيين.

توقف ثم استدار باتجاه المضيق مختفيا بوساطة شجر الدق الشائك الكثيف، ثم بدأ بالتقدم بسرعة اكثر وان بقي هنالك شجر دق جاهد خلاله. ثم استمر الى الامام. انه منتصف النهار الآن والغابة هادئة صافية ويكاد لا يسمع فيها غناء طير، ولو أنه استطاع أن يسمع صوت الجدول، هذا النهر الصغير الذي لا اسم له في وسط السكون الهادىء العظيم ارتباطه الوحيد بالعالم الخارجي من الرجال والاصوات.

شعر بالامان عندما فكر بأن يقضي المساء القادم على هذا الجانب من الضفة، ضايقه الجوع مرة ثانية ثم حط منهوكا، نظر حوله بعد مدة وجيزة، هنالك الكثير من الطيور البرية، كان متأكدا من وجود أوكار في أشجار الاسفندان. فتش بعض الوقت وأخيرا اكتشف واحدا،

كان في داخله اربعة أفراخ تزقزق بجنون. تأمل الطيور في يده وفكر بأنها سوف تمده بالطعام الكافي لطول اليوم التالي، ولكنه لم يعرف كيف سيطبخها، كبريته تبلل منذ مدة طويلة، أخيرا أخرج ممتلكات جيبه التافهة وتفحصها: خنجر، وأشرطة جلدية، وبعض القصاصات الورقية مغطاة بمفكرة ملتصقة مع بعضها، وأزهار متنوعة مكبوسة كان يحتفظ بها كنموذج لمختلف الانواع من التربة، وخارطة، وعدسة مكبرة. . عدسة مكبرة!

قفز على قدميه، كانت أصابعه ترتجف وهو يمسك بشعاع من شمس المساء عند نقطة البؤرة على جلد ظهر يده، بدأت تحترق، ابعد يده.

بعد لحظات قليلة كانت لديه نار مشتعلة مضيئة، صنعت من الأعشاب والاغصان الجافة. قطع غصنا أخضر وشكله بحيث أصبح كالسيخ وأدخله في احد الطيور المسلوخة وبدأ يشويه، حالا انتشرت رائحة الشواء كان الطير يحترق من احد جوانبه في حين يسخن الجانب الآخر فقط، أخيرا طرحه على النار يديره من وقت لوقت،

حتى أصبح جاهزا وبدأ يلتهمه بشراهة ، كان مذاقه عذبا على الرغم من انه لا يصلح للاكل، وهكذا هدأ جوعه وبدا العالم من حوله مكانا وديا سليما. وشعر بنشاط لأن يقوم بتجهيز مكان ما له لقضاء المساء فيه .

كان هنالك المنحدر المطل على الصخور الى الأسفل منه، واحدة من هذه الصخور سوف تخدمه كسقف، والارض تحته كانت ناعمة وجافة، واخيرا بنى جدارا من الصخور لتحفظه من الزوار غير المدعوين .

شعر بأن المساء كان مبكرا لذا فقد زحف الى خارج الكهف مرة ثانية وتسلق عائدا الى الجرف الصخري، القى بنفسه الى جانب النار الخامدة، الآن أصبحت ملابسه جافة، اما جاكتته الجلدية فقد أصبحت قوية متيبسة. كانت رقبته وكتفاه مسخنة بألم وتوجع. خلع جاكتته وعلقها على دكة بالقرب منه، حرارة شمس المساء الدافئة الناعمة سرقت على منحدرات الجبال، وتسلق الظلام الى الاعلى.

زمجر الجدول، وعوى حيوان بري في مكان ما. عينا

بيتر سيملنگ نصف مغلقتين ، وهكذا بدأ يحلم .

فجأة تحركت خطوات أقدام متلصصة من خلفه ، ثم أمسكت برقبة سيملنگ بقبضة خانقة من حديد .

تدحـرج سيملنگ ، الخنجر لامع في يده ، ولكن يده كانت ملتوية بألم وسقط السلاح من أصابعه .

لم يكن لديه الوقت حتى ليستغيث ، لكمة قبضة قوية وجهت الى وجهه فسقط الى الأرض لاهثا .

هذه كانت النهاية .

الصياد ومنقب الذهب

شعر (بيتر سيملنك) بأنه يودع الحياة في تلك اللحظة، فرئتاه جاهدتا من أجل الهواء وأفكار لا تصدق قفزت الى ذهنه، هذه كانت النهاية!

ولكن في اللحظة التي نجح سيملنك في الدوران حول نفسه ربطت ساقاه وذراعاه، لم يكن ينظر الى الوجه

الشاحب اللون البارد الذي يقف بجانبه مثل وجوه الدنكينيين. لقد كان الرجل الواقف أمامه صامتا أبيض. انه اوربي!

لاحظ الغريب نظرة الدهشة المطلقة على وجه بيتر سيملنگ، فقال مبتسما:

- «هذه كانت طريقة تعارف خشنة نوعا ما للتعريف بنفسي، ولكنني عندما كنت في روما..».

حاول (بيتر سيملنگ) أن يقف ولكنه فشل فقد قبض عليه الغريب كما لو انه كيس من الفحم الحجري وسحبه ليقيده الى أقرب شجرة بوضع نصف جالس، أما هو فقد جلس أمامه على العشب بمسافة بعيدة بعض الشيء. ثم قال بلطف:

- «اعتقد انه من الافضل لنا لو تحدثنا».

استعاد بيتر سيملنگ وعيه شيئا فشيئا ثم نظر بغضب الى الغريب قائلا:

- «انه بالتأكيد لقاء غير متوقع، ولكن يجب عليّ ان اعترف بانني كنت أبحث عن رجل ابيض.».

-«رجل أبيض..» تمتم الغريب «يا له من تعبير جميل.» كان يتكلم الروسية بطريقة جيدة وساخرة مما

جعل سيملنگ يقول:

- «ولكن أليس من الافضل لك أن تخبرني من أعطاك الحق لتهاجمني من دون سبب؟».

ابتسم الغريب مرة ثانية:

- «انه سؤال جيد! حسنا، هنالك قول مأثور في جبال الالتي يقول: إحترس! افعل بعدوك اليوم ما ربما سوف يحاول أن يفعله غدا. ومع ذلك فأنا أعتقد ان الرجل الذي يشعل النار ويتركها تدخن في جانب التل المفتوح فلابد انه في أمان».

نظر بيتر سيملنگ بعيدا مفكرا: الغريب على حق.

- «ولكنني تصورت بانه لا احد يتخيل وجود احد على هذه الاميال، فبالأمس لم تكن هناك أية اشارة على وجود أحد. تمتم سيملنگ بغضب.

- «وبذلك فقد قررت بانك تمتلك كل هذه الزاوية المهجورة من العالم؟» سأل الغريب بعطف نوعا ما.

قطب سيملنگ:

- «امتلكها؟ إن كل ما اريده هو ان اخرج منها باسرع ما يمكن.»

نظر الغريب الى الاعلى ثم سأل:

- «هل أنت تبحث عن الذهب؟» .

- «شيء مثل هدا . » .

- «في اي مقاطعة؟» .

رمقه بيتر سيملنگ بنظرة حادة ثم سأله ببطء :

- «وما يهمك من هذا؟» .

في الحال بدأ الغريب يفقد مرحه ثم قال :

- «لا شيء. ربما استطيع ان اعطيك بعض النصيحة . » .

انه على حق ، قرر سيملنگ بانه لا ضرر من إظهار وجهته على وجه التقريب :

- «أنا احاول أن أصل الى جبال البيلوخا(Belukha) بين نهري الارجوت(Argut) والكاتون(Katun) » .

نظر الغريب اليه بحدة ، ثم ابتسم باستخفاف قائلا :

- «هل تتصور انني غبي . فأنت تحاول أن تخبرني بانك قد تركت اصحابك الدنكنيين هنا وتريد أن تصل جبال البيلوخا والتي على بعد مئة ميل غربا تقريبا وحدك» .

عندئذ استغرب بيتر سيملنگ ثم سأل بذهول :

- «هل رأيت الدنكنيين؟» .

ـ «بالتأكيد، فقد أقاموا مخيما على المنحدر الآخر منذ ساعتين ولكن دعنا من كل هذا الآن واخبرني ما وجهتك؟».

كلماتــه كان فيهــا صدى تهديدي. الآن فهـم بيتر سيملنگ بأن الصياد كان خائفا من أن يكون المنقبون أو الباحثون عن الذهب يريدون ان يستقروا في مقاطعته فقال:

ـ «من المحتمل انك لن تصدقني. ولكنني هربت من الدنكنيين بعد مناقشة حادة ـ اسوأ مناقشة مررت بها.

ابتسم الغريب بأرتياب ثم سأل:

ـ «هربت..؟ ولكنك تبقى في الجوار لتتجسس الى خارج هذه البرية؟».

بدأ سيملنگ يفقد صبره ثم صاح:

ـ «ولكن بحق السماء يا رجل؟ كيف استطيع أن ابرهن لك بأنني أقـول الحقيقـة؟» فجـأة خطرت له فكـرة ثم أضاف: «هل رأيت في حياتك جاسوسا يقيم من غير بندقية؟».

تفرس الغريب بوجهه ثم تلعثم «حسنا..» لقد كان

جوابا مقنعا، ولكنه بقي مترددا فسأل بعد ذلك:
- «ولكن ما الذي جعلك تتركهم؟».
فأجاب سيملنگك قائلا:
- «لقد قرروا التحرك شرقا. وأنا كنت أنوي ان اتجه غربا الى جبال البيلوخا فأخبرتهم بانني أريد أن انفصل عنهم وطلبت رزمتي، ولكنهم لم يتركوني اذهب، فقد كان من الواضح بانه كانت لديهم آمال عالية بنجاحي كمنقب. فضربوني وقيدوني ثم حملوني معهم. وفي المساء هربت تاركا معداتي وبندقيتي».
عند تلك المرحلة لم يكن يبدو أن هنالك أي مقصد لاخفاء أي شيء، وكان الغريب يستمع بانتباه، اخيرا سأل:
- «معداتك؟ ما نوع هذه المعدات؟».
أجاب سيملنگك.
- «أنا مهندس تعدين، وكانت لدي معدات لاختبار محتويات الذهب في الصخور والرمال.».
رمقه الغريب بتفكير واستغراب نوعا ما. وكان يشعر

بوجــود شيء غريب حول هذا المنقب أو البـاحث عن الذهب غير الاعتيادي ، ثم أضاف :

ـ «مهندس التعدين عادة لا يسافر عبر ممر الالن دابـا 67Alan - daba مع عصابة من الدنكنيين الرحل من براري منغوليا ، اعذرني اذا بدوت مستغربا قليلا» .

ـ «ربما هنالك أشياء اخرى في حياتي تجعلك تستغرب أيضا» . أجاب سيملنگك مبتسما وتدريجيا كف عن أن يعد الغريب عدوا جديدا ، ربما انه قد هاجمه فعلا لأنه كان خائفا على سلامته فقط .

كان الغريب يجلس على بعد خمس خطوات منه في ظل أشجار الحور الرومي ، بقرب المنحدر الضيق المغطى بصخور غرانيت سود متفتتة .

كان (بيتر سيملنـگك) يراقب الرسم اللامع والصقيل عنـد الجانب الآخر للحجارة ، عندئذ لاحظ أن الرسم دبّت فيه الحياة زاحفا خلال العشب ثم أصبح على بعد ياردة عن رأس الصّياد ـ لقد نهضت . . عند تلك اللحظة من الـرعب صاح بيتر سيملنگك باللغة الالمانية منبها الى

الافعى التي انزلقت امامه . . وثب الصياد في الحال عند
رأى ذلك المخلوق الداكن ، وبعد ذلك بلحظة واحدة كان
الصياد يسحقهـا تحت كعب حذائه ، فتهشم عنقها ثم
رفعهـا الصياد ببـاسـورة بنـدقيتـه ورمـاهـا فوق الجرف
الصخري الواقف الانحدار المبلل .

مسح الصياد جبينه بارتباك ثم نظر الى سيملنگ ، فقد
كان لا يصدق أذنيه ، وانفجر اخيرا :

ـ «من أنت؟ لقد كنت تتكلم الالمانية الآن ! » .

ولكم كانت دهشـة بيتر سيملنگ إذ أن الصياد الان
كان يتكلم اللغة نفسها .

ـ «انها لغتي الام» أجاب سيملنگ

وبحـركة سريعة سحب الصياد الخنجر من حزامه ،
وقـطع القيد الجلدي الـذي يربط سجينـه ، أصبح بيتر
سيملنگ حرا .

مدّ الغريب يده مسلما على سجينه وعرف نفسه قائلا :

ـ «اسمي مايكل برانك(Michel prank)» ثم أضاف «لقد
رأيت تلك الافعى في الـوقت المنـاسب ، فلو كانت قد

لدغتني الى الاعلى من جزمتي لمت في غضون ساعة، شكرا».

انحنى برانك ليجمع الأحزمة الجلدية المتبقية ثم نظر الى الاعلى مبتسما وقال:

- «انني آسف، فهذه الأحزمة قد ربطت يديك غلطا، ولكن هذه السنين التي عشتها هنا في الالتي(Altai) علمتني بأن الحصن الامين لي في هذه البرية هو الهجوم اولا.».

ولكن بيتر سيملنگ أجاب:

- «لابأس، فقد علمتني درسا جيدا جديدا».

نظر مايكل برانك حوله ثم قال:

- «حان الوقت للبحث عن مكان لنقضي المساء فيه، فدرجة الحرارة هنا سوف تصبح منخفضة جدا عند حلول الظلام، وهنالك أيضا انثى الدببة التي تطوف بالمكان عند الجوار وهي لن تكون مسرورة بلقائنا.

وهكذا أخذا يتسلقان على طول السفح الصخري حتى أتيا الى سهل تحت الجرف الصخري البارز الذي

أرشدهما الى داخل نموذج لكهف صخري عميق. فتش الصّياد كل زاوية من الكهف.

ـ «لقد كان هذا المكان مضجعا للدببة، اكتشفته منذ عدة سنوات، وقد كنت خائفا من أن تعود مرة ثانية فالدببة ماهرة على نحو غير اعتيادي في ايجاد المأوى.

اخرج (مايكل برانك) بعض القطع من اللحم المجفف من كيسه، ثم قام بصنع نار صغيرة بلا دخان من مجموعة من الاغصان الجافة وبدأا يشويان قطع اللحم هذه ثم اكل الرجلان بسرعة وعند غروب الشمس وهبوط الظلام اطفأ الصياد النار قائلا:

ـ «حتى مثل هذا اللهب القليل ربما يجتذب الحيوانات أو البشر» جلس الرجلان في الظلام وتلألأ ضوء القمر على الحجارة من امامهم.

تحرك (مايكل برانك) بسرعة قائلا:

ـ «والآن هل من الممكن أن أعرف السبب الذي جعلك تأتي الى الالتي؟».

كان بيتر سيملنگ ينتظر هذا السؤال، فالصياد قد

حرره عندما اكتشف ان سيملنگ يتكلم لغته نفسها، انه ليس اكثر من مجازاة لثقته هو أن يخبره بقصته من دون اخفاء أي شيء، استند الى الصخرة الدافئة وبدأ:

«المانيا ليست موطني كما قد تتصور، فانا ولدت في كاتربرگ (Katerburg) المدينة الصغيرة التي تتكلم الالمانية في فولهينيا(Volhynia) على رافد جورين العلوي. فقد أتى جدي الى هذه البرية الموحشة الواسعة مع عدد كبير من المهاجرين الألمان، أما أبي فقد كان معلم مدرسة، وكان يعلم أولاد هؤلاء المهاجرين لغتهم الام، وكل ما استطيع أن أتذكره هو انه كان يذهب من بيت الى بيت ومن قرية الى قرية يجمع الصغار في غرف كبيرة محاولا أن يتأكد من أنهم لن ينسوا لغتهم الالمانية الام مهما بعدوا عن وطنهم.

كنت في الرابعة من عمري عندما بدأت الحرب العالمية الاولى، وكان يجب علينا أن نرتحل، وهكذا في إحدى امسيات شهر تموز من عام ١٩١٤ هرب والداي مع أولادهما الخمسة (بضمنهم أنا) الى الغرب وقد مشينا هائمين مدة ثلاثة ايام خلال الغابات الكثيفة والسهول

الفـارغة الى الغرب، وفي صباح اليوم الرابع زحفنا على ضفة جدول تحت مجموعة من الأشجار العالية، وعندئذ سمعنـا صياح جنـدي من بعض الغـابـات وقد صوب بنـدقيتـه الششخان الينا، لقد كان أحد حراس الحدود النمساوية، فقد وصلنا الى گاليسيا(Galica) . ثم أخذونا مع الآف آخـرين من المهـاجرين حتى وصلنا الى ثكنة (جنود) خشبية كبيرة بالقرب من ڤينيا.

استدعي أبي ولم نره مرة ثانية مدة سنتين كان قد فقد يده اليسرى في غضونها وعندما عاد أصبح معلما مرة ثانية في النمسا. وبعد انتهاء الحرب لم يكن من الممكن العودة الى الوطن، فقد كان الوقت متأخرا جدا.

كنت أجـد دائـما متعـة في استخـراج المعـادن وحبّ التعدين، وهكذا عندما بلغت الثامنة عشرة من عمري اكملت المدرسة اللغوية ودخلت الى مدرسة التعدين في ليبـونLeabon . مرّ الوقت بسرعة وبعد ست سنوات حصلت على دبلوم في هندسة التعدين. ولكنني بعد ذلك لم اكن استطيع أن اكسب حتى طعامي، فلم يكن هنالك

اي عمل ولم يكن يسمح لي أن أقوم بالتنقيب عن الذهب أو المعادن الاخرى في النمسا وكل اوربا، وهكذا فرضت عليّ حمولة ثقيلة وجديدة: عاطل.

في غضون تلك السنين مات والداي: أولا امي وبعد ذلك بستة اشهر تبعها ابي من الوحشة والحزن. وهكذا تفرقت عائلتنا وتشتت أخواني واخواتي بين المانيا والنمسا.

بعد ذلك سمعت بأن هنالك ذهبا غير مكتشف في جبال الالتي، وهكذا قمت بجمع الكتب والخرائط حول هذه المقاطعة، ووجدت بأن مراكز الذهب تنتشر في المنطقة المركزية لجبال البيلوخا(Belukha): وشيئا فشيئا وضعت خطتي للبحث عن الذهب للقيام ببعض الاختبارات وذلك لتقديم خدماتي لخبراء التعدين السيبيريين فيما اذا حصلت على نتائج مشجعة. وبذلك التحقت بفريق الدنكنيين الباحثين عن الذهب.

وهكذا أنا هنا اليوم، هائم في هذه الجبال، اوربي لا يجد له مكانا لموطن، يعيش وسط غرباء في قلب آسيا. ■.

عندما كان (بيتر سيملنگ) يتكلم، زحفت الى صوته

نبرة مرارة بالحنين الى الوطن، وفجأة امتلأت نفسه بنفور وكره كبيرين لهذه الأرض. الاجنبية الغريبة.

لم يتكلم الصياد وواصل النظر الى الارض وعندما رفع رأسه كان يبتسم:

- «وهكذا فقد التقينا نحن الاثنين هنا في هذا العالم التائه. أمّا عني فانا روسي - الماني، ولدت في الڤـولگاVolga 67 وقد قاسينا كثيرا نحن المان الڤولگا عند بدء الحرب العالمية الثانية، فقد أبعدونا الى السهل الواسع الخالي من الشجر وارسل البعض الآخر الى المناجم عند الاركتكArctic ؛ وسافر العديد من الفلاحين شرقا باتجاه الحدود المنغولية.

أما أنا فقد هربت الى الحدود الصينية التركستانية وكان عليّ أن أكافح كثيرا للعيش، فقمت بكل أنواع الاعمال، اخيرا أتيت الى جبال الالتي - ليس لنبحث عن الذهب، ولكن للصيد».

نظر بيتر سيملنگ قائلا:

- «الصيد في هذه الجبال؟ ألا تستطيع أن تجد شيئا

مربحا آخر اكثر من هذا؟».

ابتسم الصياد في نور السحر قائلا:

- «أنا لدي كل ما يكفيني للعيش، والاكثر من كل هذا، أنا حرّ. فماذا سأفعل بالذهب؟ وحتى لو حالفني الحظ بأن اجده فلا أستطيع أن أعود الى وطني لتقديم على الفولگا، وبقية اجزاء العالم لا تشكل شيئا بالنسبة لي».

عندئذ حلّ الظلام على المساء السيبيري الابيض. التقط (مايكل برانك) حجارة مسطحة واستعان بها ليجعل منها حائطا لسد الفتحة الضيقة للكهف.

- «الآن يجب علينا أن ننام كما لو أننا عدنا الى اوربا القديمة.» قالها برانك بابتسامة ناشرا الغطاء الواسع، ودعا سيملنگ ليضطجع بجانبه، فاستقرا واحدا بجانب الآخر.

انخفضت درجة الحرارة الى درجة الانجماد، وفجأة انتصب بيتر سيملنگ مرة ثانية قائلا:

- «يجب عليّ أن احافظ على الطريق المعاكس للدمكنيين لأصل الى جبال البيلوخا».

سحبه برانك بلطف مرة ثانية قائلا :

- «سنفكر في هذا الموضوع في الصباح» .

سأل سيملنگ مستغربا ومنشرح الخاطر :

- «هل ستساعدني ؟» .

- «طبعاً، فأنا أعرف هذه البلاد أفضل من الدنگنيين» .

وهكذا دثر سيملنگ نفسه مرة ثانية بالغطاء مطمئنا ساكن البال لاول مرة منذ أيام عديدة .

سر الداكيني

- «شش! انظر، هناك أيل!» همس سيملنگ بسرعة مستديرا الى الصياد ثم نزل على ركبتيه وزحف الى الأمام ببطء الى حافة الجرف الصخري ثم انحنى بحذر، وهناك الى الأسفل على بعد مئة ياردة في منطقة الجرف الصخري الواقف الانحدار الى الجدول وقف الصيد الأشهى في الالتي.

- «عمره اربعة عشر عاما» همس برانك عندما تمدد بصمت الى جانب سيملنك ثم رمق الحيوان الأصيل، كان يبدو انه يبحث عن طريق الماء. عندئذ همس سيملنك:

- «لماذا لا تطلق النار؟».

- «ولماذا أفعل هذا؟ فأنا لا استطيع أن أحمل قرون هذا الايل الثقيلة، ومعطف الحيوان الصيفي لا يساوي كثيرا».

عندئذ جلس الصّياد على مؤخرته، مفكرا، في هذه الجبال والوديان السيبيرية خاملة الذكر المهجورة - من الممكن أن نجد هنا وهناك اتفاقا مجموعة من ذوي الجلد الاصفر الباحثين عن الذهب أو احد سكان الغابات الخلفية البسطاء أو السيبريين بليدي الفهم الاكثر أمانة بمئة مرة من الرعاع المنغوليين او الدنگنيين الذين ينتهكون المنطقة السيبريية بحثا عن الذهب - من دون رخصة، طبعا، فهم يعدون السرقة بالاكراه جزءا من تجارتهم. فجأة: طلق ناري من الخلف؟

- «هولو!» قاطع أفكاره فجأة، «هل سمعت شيئا؟ ما الذي يمكن أن يكون؟» القى بنفسه بخفة الى الارض مرة

ثانية على الضفـة الصخـرية ونـظر الى فوق الجـانب الصخري. فجأة، ظهر جسم متحرك، لقد عاد الأيل.

بنگ!

قفز بيتر سيملنگ عند صوت دوي الطلق الناري في الوادي الضيق، اعتقد الرجلان دقيقة ان الايل يوشك أن يسقط، ولكن عندئذ ظهرت قرونه منتصبة عالية، ثم اختفى بين الدغل.

أخذ (مايكل برانك) منظاره الحربي من حزامه وفتش عن الجرف الصخري المقابل، فالرجل الذي اطلق الرصاص لابد أن يكون واقفا في مكان ما على جانبهم. وقد كان من المستحيل له أن يرى أبعد من خمسين ياردة الى الاسفل بسبب البروز في وجه الجرف الصخري الذي يخفي الجزء الأسفل من رؤيتهم.

لاحظ (بيتر سيملنگ) ان تقاطيع وجه (مايكل) الجلدية قد اتخذت تعبيرا عظميا متهيجا. تراجع مايكل برانك ورفع بندقيته على كتفه ثم تمتم:

- «من الأفضل لي أن اتتبع هذا المعتدي الفضولي ما دامت آثار اقدامه جديدة، هل ستأتي معي؟».

ولكن سيملنگ فكر بان صديقه الجديد قد يفضل

تعقب المعتدي غير المعروف وحده، فقال:

- «ولكنني قد عزمت على أن انطلق خلف الدنگنيين».

- «ربما كان كلا السبيلين يرشدنا الى الطريق نفسه» اقترح برانك ثم سحب مسدسه من جيبه. «على أية حال، يجب ان لا تبقى هنا من دون بندقية!».

استحسن بيتر سيملنگك اشارة الثقة هذه ثم قال بامتنان:

- «شكرا!».

تسلق الرجلان بصمت الى خارج الكهف على طول الجرف الصخري المكشوف، بدأ ضوء شمس الصباح يلمع على قمم الجبال في الغرب.

وهنـاك عند الصبّب الواقف الانحدار انتشرت تربة واحجار متفتة بلون الطوب الأحمر الداكن، تفرس بيتر سيملنگك مفتونا بالمنظر.

عندئذ قال برانك:

- «انه تراب معدن الحديد.»

هبت ريح، وصعدت من المضيق سحب من الضباب، وحالا اخترقت شمس الصباح الباكر الى داخل الوادي. ركض الرجلان على السهل المرتفع المعشب الأعلى من المنحدر بين الاشجار القصيرة التي تغطي عشرين أو ثلاثين ياردة. ثم قاما بتفتيش الأدغال التي ربما يكون الغريب مختبئا فيها. حينئذ قال برانك:

- «لدي شعور بأن ذلك الغريب الفضولي المعتدي قد ترك المضيق حالا بعد ان اطلق الرصاص الى أسفل الوادي. وربما يكون قد قضى المساء قريبا منا.»

في تلك اللحظة مد سيملنگك عنقه ليكتشف الطريق الاسهل للعبور، وفجأة اتسعت عيناه وارتد الى الوراء، ثم هتف بشدة:

- «انظر الى الاسفل!» ثم دفع برانك الى الامام بحماس الان كلاهما كانا ينظران الى داخل الوادي.

- «يااللعنة!» لعن برانك همسا «وهكذا فهنالك آثار الاقدام التي كنا نبحث عنها كل هذا الوقت على المنحدر! ولكن يجب علينا ان ننحدر.. أنا اتساءل أين تسلق ذلك

الدنكيني المحتال مرة ثانية»

قفـز الـرجلان الى الأسفل ووقفا فوق الضفة الرملية الـرطبـة ثم اتخـذا طريقهما الى منطقة الصخور الملساء وتوقفا مرة ثانية.

امتدت امامهما مجموعة من الصخور البالية بفعل الماء شيدت خارج الماء، وكان من الواضح ان الرجل المجهول قد عبر الجدول بالاستعانة بمعبرة.

نظر أحدهما الى الآخر ثم قال مايكل برانك:

ـ «من الـواضـح انـه واحد من الدنكيين الباحثين عن الذهب. انه لشيء لطيف منه بأن جعل الامر بسيطا لنا! الآن علينا فقط ان نتبع آثار أقدامه.»

وهكذا تسلقا في الحال الى خارج المضيق وكان عليهما ان يتقـدمـا بحـذر، كان (برانك) صيادا مجربا، القى بنفســه بين الادغال ثم نظر الى المنحدر بوساطة منظاره الحربي الى داخل العمق الخشبي للوادي. ثم سأل رفيقه:

ـ «الى أين يأخذ بولانكا (Pnlanga) الدنكيني ؟

ـ «ليست لدي فكرة. فعندما التقيه في كوبا وسألته أن

يسمح لي بالانضمام الى قافلتهم لعبور «الالن دابا»، سمعته يقول شيئا حول رغبته في عبور الطول الحدودي للتانو ـ توڤا (Tannu - Tuva) وطن الاوريانكا (Urianrai) القديم. وقد قال بأنه يعرف الكثير حول حقول الذهب هناك. ولكنني لم أشأ أن أقلع عن خطتي باستكشاف جبال البيلوخا (Belukha).

ـ «ماذا يخطط اولئك اللصوص ذوو الجلد الاصفر أن يفعلوا عند حدود التانو ـ توڤا؟» سأل مايكل برانك محتارا ثم نهض ببطء على قدميه وأضاف:

«ربما انهم لم يجدوا ذهبا على الجانب السيبيري ـ فالجبال واقفة الانحدار والجدول قصير جدا، أما الطرق القليلة الى داخل وطن الاوريانكا فقد حفظت من قبل حراس الحدود.»

بتفكير ترك الصياد المتمرس نظره يسافر على طول البلاد باتجاه الشمال الشرقي في مكان تتابع جبال الحدود السيبيرية، ثم أخرج خريطته من جيبه. بعد برهة كان يفكر بخطة جديدة.

ـ «سوف نحاول أن نصل الوادي ونقطع طريق الدنكيني على طول ذلك الطريق الى الشمال»

كانا يسافران بثبات الى جهة الشمال الغربي ثم هبطا مستعينين بأيديهما باتجاه الوادي. ثم عبرا الجدول الى مكان العشب الاخضر الرطيب النامي. فتش (مايكل برانك) عن آثار أقدام ولكنه لم يجد شيئا. هل اتخذت القافلة اتجاها آخر؟

عندئذ همس سيملنگك بسرعة:

ـ «استمع!»

نظر الصياد حوله، تكرر الصوت الذي سمعه سيملنگك، كان يشبه حركة المواشي على الصخور، ثم هتف:

ـ «القافلة!» ثم صاح فجأة «الى الاسفل!» كان متأكدا ان سيملنگك لم يكن مستعدا لحركته المفاجئة هذه، رمى بنفسه إلى داخل التجويف، وبعد لحظة واحدة صوّت طلق ناري، ثم أربع رصاصات طائشة صغرت بعدها ثم عاد السكون ثانية.

كان بيتر سيملنگك ينظر مقطب الوجه حوله ثم سحب مسدسه ورفعه فوق حرف التجويف الذي يأويهما ولكن (برانك) منعه :

- «هذا غير صحيح ، فرجلنا مختبيء بشكل جيد جدا في مكان ما، ولو كان متمددا الى الأسفل فلاشيء يقلقنا منه . »

- «ولكنه سوف يهرب!» انفجر سيملنگك .

- «كلا لن يفعل . سوف يسقط في ايدينا!»

بعد ذلك بدأا بالمسير وبعناية محوا آثار أقدامهما عندما تركا الوادي المنبسط . احتفظا بالتقدم الى داخل البركة الراكدة ثم أوسعا الخطى بثبات إلى الامام شمالا . ولكن المساء باغتهما حالا ، وعندئذ توقف (برانك)، شعر أن الأرض مبتلة والادغال الاكليلية طويلة من حوله فقال :

- لقد فقدت آثار أقدام الايل .

(سيملنگ) لم يقل شيئاً ، فماذا هناك ليقوله؟
تكلم (برانك) مرة ثانية برقة قائلاً :

- «يجب أن نتحرك غربا باتجاه الجدول ونتبعه الى أسفل

الـوادي وبـذلـك سوف نصـل النهر ونستطيع أن ننتظر القافلة هناك . »

وافق سيملنگـك بانـه لاخيار آخـر هنـاك . فهما لن يستطيعا أن يستمرا شمالا تائهين خارج المضايق وداخلها من دون آثار أقدام تتبع . وهكذا بدأ الرفيقان بالتقدم الى الامام ، وفي الحال بدأ مايكل برانك يسرع خطواته مخافة أن تمر القافلة قبلهما .

وفجأة سحب (برانك) صديقه الى الخلف :

ـ «لقد أتوا الى هنا توا ، فآثار اقدامهم مازالت جديدة . »

عض الـصياد على شفتيـه بغضب . «يجب أن نتبعهم ونستفيد من الظلام لنفاجئهم . »

بدأ الرجلان يوسعان الخطى شمالا على طول الوادي ، لم تكن هنـالـك حاجـة للبحث من آثـار أقـدامهم ، فالاغصـان متكسرة ووقـع الاقـدام واضح على الأرض الناعمة . وهكذا فكل الدلائل كانت تشير أوتدل على تقـدم القافلة . ويبدو أن الدنگيني كانوا مسرعين أيضا وهذا مما ساعدهم على وضع مسافة جيدة وصحيحة بينهم

وبين مطارديهم خلال المساء من دون أن يتوقفوا ليغطوا آثار اقدامهم، ومن المحتمل انهم عزموا على أن يبتعدوا حتى يصلوا الى داخل المضيق عند طلوع النهار ويختبئون هناك.

وهكذا بدأ الصديقان يهبطان الجرف الصخري مستعينين بايديهما. همس برانك:

- «يجب أن نباغتهم عند الجناح، هل تعلم أي حيوان يحمل اشياءك؟»

- «عندما كنت معهم كان البغل أبلق، ولكنني استطيع بسهولة أن أتعرف على رزمتي فهي تختلف عن رزم الدنگينين.»

- «جيد.»

فجأة شعر الرجلان بحركة كبيرة، انها القافلة، وهكذا قاما باتباعها في تقدم مواز لطريقهم الى الاعلى من المنحدر، ثم جثم الاثنان على بعد خمس خطوات بين الادغال، قال برانك:

- «الان سوف ندع البغال والرجال يمرون.» ثم أضاف:

سوف ابحث عن الرجل الذي أخذ بندقيتك فالتقطه على ضوء المساء، أما أنت فتذهب الى البغل حاملا اشياءك ولاتطلق النار الا اذا اصبح الوضع لاأمل فيه.»

في غضون ذلك مر الحيوان الأول، راقب (برانك) السير الخفيف للقائد الدنگيني بجانبه، أما الثاني فقد رفع رأسه فجأة وحوافره الى داخل الارض، الدنگينيون الاخرون لم يتوقفوا مع بغالهم. فجأة وكز (سيملنگك) الصياد بكوعه بشدة ـ البغل كان أبلق!

عندها تقدم الحيوان الأخير وخلفه رجل آخر من الدنگين، وكان يحمل بندقية فوق كتفه.

ـ «الآن!» همس برانك. انسل الرجلان بين الأدغال، وقف الصياد الى اليسار ودنا سيملنگك الى البغل من الخلف، عندئذ ضرب برانك الرجل فوق رقبته فتزحلق الى الأرض، وقفز سيملنگك الى الحيوان وخطف اللجام وضغط على خيشومه بأصابعه ثم سحبه خارج الطريق الى وسط الدغل.

لم يسلم (سيملنگك) من الأذى فقد شعر بالدم

الدافىء يتدفق الى وجهه وبداخل ياقته وتمزق واحد من اكمامه. كان يرتجف، فك الحزام الى أسفل بطن الحيوان وعندها سقطت الرزمة من ظهره، ثم ربط لجامه باحكام الى فرع شجرة، وسحب الرزمة عائدا الى طريقه. في تلك اللحظة صاح برقة:

- «برانك، أين أنت؟»

- «هنا!»

تقدم سيملنگك، كان الصياد يركع على بعد خطوتين منه فوق رأس الرجل الدنكيني على الأرض الداكنة.

- «انه لايتحرك، فهو شبه ميت.» دمدم برانك وأضاف هنا - هل هذه بندقيتك؟

لقد كانت هي بالتأكيد! فحص بيتر سيملنگك مخزن البارود - كانت هنالك خمس خرطوشات.

اومأ مايكل برانك برضا قائلا:

- «الان يجب أن نجمع كل ممتلكاتك المفقودة، أليس كذلك؟ أين البغل؟»

- لقد ربطته.»

رفع برانك رأس الرجل وتفرس في وجهه :

- «هل تعرفه؟» هو سأل «فهو يبدو وكأنه قائد المجموعة.»

انحنى بيتر سيملنگك فوق الرجل الساكن ليتفحص ملامح وجهه على ضوء النجوم ثم حط راجعا بفزع ، فقد فتح الرجل عينيه المشتعلتين بالكراهية .

- «بولانكا!» صاح سيملنگك .

- «قانون التايكا يستوجب منا أن نقتل هذا الانسان . فالعين بالعين والسن بالسن، ولكنني لاأحب الفتك برجل أعزل» قال برانك .

تضايق سيملنگك ايضا من مجرد اطلاق النار على كائن بشري حتى اذا كان عدوا لدودا ، ثم استفهم :

«ولكننا لن نستطيع أن نأخذه معنا ، أليس كذلك؟»

في تلك اللحظة سمعا صوت عدو حوافر وانقضام اغصان جافة من

المكان الذي ترك فيه سيملنگك البغل .

- «بسرعة! البغل!» صاح برانك .

ركض الى داخل الادغال ثم رجع حاملا قطعة من

حزام اللجام :

- «الجلد . يكون قويا كفاية لربط الحيوان الحي ..

عرف الدنكيني ما الذي حدث فضحك باستخفاف .

فقال برانك بتهديد :

- «ليس هنالك شيء لتضحك عليه ، أنت أيها المحتال ذو الجلد الاصفر ، فنحن نستطيع أن نصفق اثنا عشر مرات قبل أن يعود اصدقاؤك اليك» .

عندئذ حضرت له فكرة ، نظر الى الشجرة المنتصبة وحدها بالقرب منه ثم رفع العملاق الدنكيني وسحبه باتجاهها . كان (بولانك) يرتدي حزاما جلديا واسعا ، رفعه (رانك) ووجد انه يكفي لربطه الى الشجرة .

- «سوف يعود الباحثون عن الذهب ليبحثوا عنه وسوف يفكونه ، وحتى ذلك الوقت يستطيع أن يريح نفسه تحت هذه الشجرة» .

عندئذ قال سيملنگ :

-«والآن علينا أن نتجه الى جبال البيلوحا» .

- «نعم .» أجاب برانك .

كان يبـدو لبيتر سيملنگ عندما رفع رزمته على كتفه بأنهـا اثقل قليلا مما يتذكر، ولكنه لم يفكر كثيرا حولها. وهكذا انطلقا ضد التيار بالاتجاه الجنوبي، وعندما عرف الدنگيني بأنهما عزما على تركه صاح بجنون:

- «كـلاب بيض! اتـتركـاني هنـا لأؤكـل من النمور والـدببـة، اوه! نخوة عظيمة. اللعنة على هؤلاء الرجال الآف المرات!».

استـطاع الصديقان ان يسمعا لعنته الوحشية لبعض الوقت ولكنهما سارا بمثابرة ومن دون كلام محملين بالرزم الثقيلة على ظهريهما. وعند الصباح المبكر أتيا الى صخرة بارزة جعـلا منهـا مأوى لهما، فألقيا برزمهما في الكهف تحتها ثم بنيا جدارا من الحجارة الجافة على طول المدخل واضطجعا طلبا لراحة قصيرة، كان بيتر نائما قبل أن يلمس رأسه الارض.

عندما أيقظه الصياد كانت الشمس عالية في السماء:

- «اريد أن استعير بندقيتك» كان يتكلم بابتسامة.

أومأ بيتر سيملنگ بكسل، ولكنه لم يرجع الى النوم،

بل نصف حالم، تخيل وجه الدنگيني مشوها بالغضب ثم تحول الى افعى، وفجأة صاح سيملنگ بفزع ثم قفز على قدميه وذهب ليبحث عن الصياد.

كان (برانك) يشق طريقه خلال الدغل على طول الاخدود، الان استطاع أن يرى قطيع الماعز الوحشي، (مايكل برانك) يحمل البندقية ثم أخيرا صوت طلق ناري، تفرق القطيع ولكن على بعد عشرين ياردة تمدد حيوان أصفر زاه. ركض برانك باتجاهه، توقف وصوب بندقيته، طلق ناري ثان حطّم الصمت لمنتصف النهار الراقد.

أسرع بيتر سيملنگ الى الأسفل ليلتقيه، وعندما أتى باتجاهه رأى انه حيوان يشبه القط، طويل تعلق على كتفي الصياد.

- «انه الوشق، كان يسير خلف الماعز» ابتسم برانك ثم اضاف:

«انه معطف صيفي يساوي الكثير، الصياد في الالتي لا يظفر غالبا بمثل هذا القط».

وعنـدمـا عادا الى المـأوى سلخـا الوشق ومددا جلد الحيوان فوق بناء مؤقت، أما لحمه فلا يصلح للاكل.

بعد ذلك جلسا مرة ثانية عند مدخل الكهف وبدأ بيتر سيملنـگ ينشر معـداتـه ليراهـا برانك، تفرس الصياد بصمت الى المـطرقة والى الماء المتكي ثم وقف سيملنگ وحمل الرزمة الأخرى وهتف:

- «تلك ليست رزمتي اطلاقا».

ولكنهما قررا أن يفتحاها، ساعده الصياد بفك الحزام الجلدي، وعندما ثنيا القطعة الاخيرة الملفوفة تفوّه الاثنان بنداء الدهشة. فقد رقدت في داخل لفة الحرير الصيني مجمـوعـة من القلادات والاقراط التمعت تحت أشعة الشمس، وسكاكين فضية وحزت الدنانير.

وهنالك أيضا عدة اكياس من الدراهم، وهنالك في الداخل أيضا كتلة من معدن ثمين وزنه يقارب الرطلين.

نظر الصديقان احدهما الى الآخر بفزع، اخيرا حطم برانك الصمت:

- «ان بولانكا بالتأكيد هو البروميسچلنيك Premys-

« chlennik » قال ببطء «أولص التايكا!» .

إن الألـتـي قد تبرأت من الـبروميسچلنيك .
فالـبروميسچلنيك هو شخص خارج على القـانون يهيم منفردا لسبب او آخر . فهؤلاء الرجال يعيشون كالحيوانات في البرية يستقرون بانتظار مجاميع المنقبين الذين غالباً ما يحملون الذهب، فهو يطلق النار أولا على قائد الجماعة، ثم يتبعه بثان وثالث ورابع ويلازمهم حتى يسقط آخرهم ميتاً بين الأدغـال، بعـد ذلـك يحتطف اللص ذهبهم ويختفي مرة ثانية الى داخل العزلة الواسعة للتايكا .

شعر بير سيملنگ بكرب وحزن، ثم تفحص غنيمة السـارق فاستقـرت عيناه على خنجر مزخرف من النوع الـذي يلبس في الاحـزمة، ثم أدار المقبض بثقة، أكان هنالك اسم قد نقش فوقه؟ عندما رفع الخنجر الى الأعلى قرب الضوء استطاع ان يقرأ شخبطة غير متقنة :

اندغي سيهوز Andie Seehs .

- «الدعي سيهور . الدعي سيهور!» يمتم مع نفسه، ثم ناول الخنجر الى مايكل برانك :

ـ «هل هذا ما قلته؟ اندغي سيهوز؟» سأل، ثم انحنى الصياد ليتفحص الحروف المخدشة وقال:

ـ «هذا صحيح . . المالك هو اندغي سيهوز في الاقل انه كان مالكه».

جلس (برانك) غارقا في أفكاره، نظر ثانية الى الكتابة ثم مسح عينيه وفجأة هتف:

ـ «اندغي سيهوز! هذا هو اسم مزارع الڤولگا Volga الألماني الذي يعيش في منطقة الاوريانكا Uriankhai هل هذا ممكن؟»

وبسرعة قصّ على سيملنگ لقاءه ببعض مزارعي الڤولگا الالمان قبل سنتين الذين تاهوا في سيبريا، واخيرا استقروا على الجانب الآخر للألتي السيبريي في منطقة التانو ـ توڤا ـ كان من بينهم رجل عاش منعزلا عن الآخرين على المزرعة المنفردة وكان اسمه اندغي سيهوز.

وقف الصياد ثم خطا الى خارج الكهف، تصلب وجهه النحيف:

ـ «شيء ما يجب أن يكون قد حدث الى اولئك

المستوطنين! انهم يحتاجون لمساعدتي» ثم عاد الى الكهف وقال:

ـ «يبـدو أننـا يجب ان نفترق يا صديقي. فطريقك يمتـد الى الغـرب، أمـا انـا فيجب عليّ أن أعـبر مدى السليگيم الى الشمال الغربي. واذا اعطيتني غنائم لص التايگا فسوف اعيدها الى مالكها الشرعي ـ اذا كان قد بقي حيا».

وقف بيتر سيملنـگ لحظات ثم وبقرار مفاجيء دفع معداته للبحث عن الذهب بقدمه وقال:

ـ «ومـا الـذي يهمني من ذهب البيلوخا، أنا سوف أذهب معك الى منطقة المزارعين الالمان وراء جبال الالتي».

عندئذ تجعّد وجه مايكل برانك بابتسامة وأمسك بيده قائلا:

ـ «لم اكن اجرؤ على أن اسألك الذهاب معي، ولكنني كنت آمل أن تقول هذا، بيتر».

بعـد ذلك ومن دون ابطاء انطلقا الى الرحلة الخطرة الطويلة الى منطقة التانو ـ توقا.

عاصفة الثلج

ببطء، خطوة فخطوة تسلق الرجلان المنحدر عبر
المحدود الابيض باتجاه وادي النهر الازرق العلوي.
كانت حمولتهما ثقيلة، عندئذ سأل سيملنگ:
- «هل سنعبر عن طريق الشرق؟».
اشار مايكل برانك الى قمة بيضاء عالية الى الشمال

الشرقي وقال:

- «ذلك الشكل الهرمي الأبيض هو سيمريتسج (Sem-rytsch) علينا أن نصلها قبل أن نصل الى البلاد المجهولة للاوريانكا.

- «هل قمت بمثل هذه الرحلة من قبل» سأل سيملنگ.

- «نعم.. قبل سنتين».

- «هل هنالك ذهب في الاوريانكا؟».

- «في الضفاف الرملية لنهر التانو ـ اولا (Tannu - ola)»

في غضون ذلك وصل الصديقان الى الجرف الصخري العالي لوادي النهر الازرق، وهناك أقاما خيمة برانك الصغيرة مستقرة على أغصان شجرة الحور الرومي ونباتات من فصيلة الدفلى، وهكذا لا يمكن تمييزها او فرقها عن بقية المنحدر. فكر (برانك) ان على كل منهما أن يتناوبا الحراسة الليلية، فأخذ بيتر سيملنگ حراسة الساعات الاولى ثم ينجده برانك عند منتصف الليل.

جلس (سيملنگ) على المنحدر فوق الخيمة بجانب صخور بالية بفعل الماء، كان الهدوء والسلام عظيمين مما جعل سيملنگ يحلم بانه عاد الى موطنه بعيدا في اوربا،

وعندما انتهت ساعات حراسة سيملنگ مشى عائدا الى الخيمـة، نهض برانك عندما سمع سيملنگ آتيا واخذ البنـدقية وخـرج، أمّـا بيتر سيملنـگ فقد سقط نائما في الحـال، ولم يستيقظ حتى الصبـاح عنـدمـا رفع الصياد حاشية الخيمة الى الخلف موضحا:

ـ « لا حاجة لحراسة ثانية الآن:

قام الرجلان بصنع نار صغيرة وحاولا أن يدفئا أطرافهما المتيبسـة ثم تناول كل منهما شريحة من اللحم المجفف المشويِ. فجأة سمعا صوت نهيق بغل، فقال الصياد بابتسامة:

ـ «هـذا هو مركـز قيادتي او ادارتي في واديِ النهر الازرق، ثم مشـى الى خارج الـكهف وتسلّق الى بغله وضغط بأصابعه على خيشومه وربت على جنبه، ثم سار الى أسفـل الارض الخضراء المسيجـة. بعمدئـذ انـطلق الرجلان مرة ثانية الى رحْلتهما الطويلة، ترك بيتر سيملنگ معـداتـه خلفه، خزنها بعيدا بعناية، وأخذ معه بندقيته وغنـائم لص التـايگـا فقط. تسلّقـا بثبـات الى الجرف الصخريِ الاسود الذيِ لا حياة فيه حتى وصلا الى نهر الثلج وأسرعا في مشيهما خوفا من تكسّر احد هذه الجدران

الثلجية المشرقـة الى الاسفـل. وهكذا استطاعا أن يريا السيمرتسج (Semrytsch) مثل الهرم الفضي. قال سيملنگ بتلهف:

- «تعال نتسلق الى المضيق.».

نظر برانك حوله بارتياب وقال:

- «يجب أن نقضي الليل على هذا الجانب، فالوقت مبكر وهنالك عدة صدوع في نهر الثلج المغطى بالجليد» ثم اضاف:

«ذلك الاخدود يقودنا الى المضيق، فقط انظر الى تلك الصخرة الشامخة الحادّة».

ثم جلسا الى أسفلها لراحة وجيزة.

عندما فتح بيتر سيملنگ عينيه مدة قصيرة، كان رأس الصخرة الشامخة قد اختفى «اوه!» صاح باستغراب:

«انظر الى هناك!».

نظر برانك أيضا الى الضباب المتجمع، لقد اختفى السيمـرتيسج خلف الجدار الابيض وأصبحت الشمس شاحبة وملوثة. وثب على قدميه وقال بسرعة:

- «هيا، يجب أن نتقدم الى الاسفل».

تبعه بيتر سيملنگ بصمت:

- «احمل الحبل المتراخي» صاح برانك من فوق كتفه خلال الضباب، كانت كلماته غير مسموعة تقريبا. بعد قليل ابتلع الضباب برانك ولكن عندئذ صاح سيملنك محـاولا أن يقصر طول الحبل بينهما وبذلك استطاع ان يرى برانـــك ثانية، ولكن بعض القـــوى الخفية بدأت تسحب سيملنگ فوق الجليد، وبدأ يتزحلق بيأس أسرع وأسرع، ارخى الحبـل حالا ولكنـه الآن لا يستطيع أن يوقف نفسه فاندفع بعنف وسرعة الى أسفل الهوة الجليدية مصحوبا بصرخة رعب.

عندما بدأ يستعيد وعيه شعر بشيء دافيء ولزج يجري من جبهته فوق وجنتيه، رفع يده بحذر الى وجهه، وعندئذ اقترب منه ظل وفجأة سمع صوتا يتكلم معه في الحال:

- «أما زلت على قيد الحياة، بيتر؟» كان صوت الصياد يبدو آتيا من بعيد، ثم شعر بكتفه يهتز بقوة أخيرا استعاد وعيه. مزّق (بـرانك) منديله الى قطع وربط القطع الى جبهته وقال «ستعيش، ولكننا يجب ان نقوم بحركة».

تركا ممر الثلج الرئيسي الى داخل واحد من الصدوع في سدود نهر الثلج العديدة، وكانت العاصفة الثلجية تندفع بقـوة مفـزعة، كانت تهب الى الامام من الشرق موجهة

شطايا الثلج أفقيا على طول نهر الثلج ، جثما خلف كتلة كبيرة من الثلج خارج مساحة خيمتهما جلسا فوقها وسحباها فوق رأسيهما ، درجة الحرارة المنخفضة جعلتهما يشعران بالمرض والدوار .

زال ظلال نور الغسق تدريجيا وسقط الليل فوق العالم بهدوء كالموت ولكن استمر هدير العاصفة .

- «كم ستستغرق العاصفة الثلجية لتنتهي في الالتي ؟» سأل بيتر سيملنگ مجاهدا .

- «ساعة . . يوما . . اسبوعا ، فليس لهذا مقياس» مايكل لم يخف الحقيقة ولكنه كان تائها باضطراب في كيفية انقاذ نفسيهما من الكارثة التي تهددهما .

استمر الثلج يتكوم حولهما حتى أصبح كالكهف ، وكان (برانك) يحرك حاشية الخيمة من وقت لآخر خوفا من الاختناق .

وعندما وضع بيتر رأسه على كتف صديقه وبدأ ينعس ، بدأ برانك يقص عليه قصصا طويلة عن حياته ، وكانت مرتبة لتحريك فضوله لمنعه من السقوط نوما - لأنه في مثل هذا البرد القارس يكون الموت بالانتظار .

استمر الصّياد يتكلم ساعات عديدة ، ولكنه لم يستطع

أن يبقى مستيقظا مدة أطول .

استيقظ على صوت صليل بجـانبه . هل كان بيز
سيملنگ مختنقا !

قفز على قدميه ومزق حاشية الخيمة .

العاصفة انتهت، وأشرقت النجوم .

الحريق المدمر على التسجاجا (Tschaja)

جلس الصّياد على الأرض الصلبة مرة ثانية وسحب طرف الخيمة تاركا شقا مستطيلا ضيقا، لم يزعج بيتر الذي كان ينام باطمئنان.

أغلق مايكل برانك عينيه مفكرا، لقد تعلّم أن يعتمد على نفسه طيلة سني وحدته ولكنه في هذا اليوم كان يشعر

بأنه يائس وعديم الحيلة. فهل هي المصادفة التي أنهت هذه العاصفة الثلجية بعد ليلة واحدة فقط؟ ام انها العناية الآلهية! ثم قدّم الشكر المتواضع الى الله على سلامته، وهكذا بقي هائما في افكاره حتى غلبه النعاس ونام. تراكمت كثبان عميقة من الثلج نتيجة العاصفة الثلجية القارصة.

- «اوه! ما هذا؟ هل سمعت شيئا؟» بهذه الكلمات استيقظ بيتر سيملنگ وسحب أطراف الخيمة كل على حدة، هبت ريح ثلجية الى الداخل، استيقظ مايكل برانك ونهض رافعا حافة الخيمة الى الاعلى فتساقط الثلج المتراكم واستطاعا أن يريا نسرين كبيرين رماديين ينطلقان بصيحات أجشّة هائمين حول المكان.

- «لقد انتهت العاصفة الثلجية بأسرع مما بدأت ولكن ألا ينتهي هذا الجو الهادىء غير الطبيعي» سأل بيتر سيملنگ بارتياب.

- «سوف نعبر نهر الثلج حالا، فالعاصفة سوف تعود» أجاب الصّياد بابتسامة ثم أخرج شرائح اللحم المجفف

من حقيبته وبدأا يأكلان بصمت. بدأ الضباب يختفي شيئا فشيئا خلال السماء الزرقاء وتسلّقت الشمس خارج السديم الذهبي الشاحب شرقا. انحنى الصّياد حاملا الحبل المتجمد وقال:

ـ «سوف يذيبه دفء الشمس ـ فمن دون هذا الحبل لن نستطيع أن نصل القاع» ردّ برانك على نظرة سيملنك المتسائلة. ثم قام بدلك الأجزاء المتجمدة بحافة مستديرة لكتلة من الجليد وبذلك ذاب الحبل وقام كل منهما بربط واحدة من النهايتين حول جسمه، ثم طويا الخيمة الرطبة وحملا رزمهما على ظهريهما. قال برانك:

ـ «سنصل الى منتصف نهر الثلج فهناك الصدوع أقل وعند شلالات حقول الجليد الواقف الانحدار سوف نحاول أن نعبر جسر الثلج الى الصخور الخلفية لنهر الجليد».

وهكذا قاما بهبوط ممر السيمريتسج ـ دابا - Semrytsch daba بحذر كبير. وكان برانك يفحص كل خطوات الطريق بعصا قصيرة قبل وضع أقدامهما عليها، وعند

منتصف النهار وصلا الى الحافة الاولى للمنحدرات الصخرية. ثم راحا يهبطان هذه المنحدرات مستعينين بايديهما وفجأة نظر برانك الى الأعلى وصاح:

ـ «انتبه! صخور متفككة!» ثم القى بنفسه الى خلف صخرة سوداء بالية بفعل الماء على بعد ست ياردات وامّا بيتر سيملنگ فقد انحنى غريزيا، ولم يخرج الرجلان حتى عاد الهدوء. وهكذا وبعد هذا الانذار تسلقا بحذر اكثر فوق الحجر الرخو غير المطروق وكانا ينظران بقلق الى الاعلى من وقت لآخر. قال الصياد:

ـ «انها ستكون أخطر بعد الظهر. فصقيع الماء بين الشقوق الصخرية وبعد ذلك عندما اذابته الشمس سقطت الصخور المتفككة جالبة معها الانقاض الاخرى».

لقد كانا يعبران السهل الاسيوي المرتفع، وهنالك أقاما مخيمهما تحت شجرة متوسطة الحجم نوعا ما. جفت الخيمة ببطء ورفرفت في ريح المساء، وقررا أن يتناوبا الحراسة، كما انهما لم يقوما باشعال النار خوفا من

تربص لصوص الجبال في مكان ما بالقرب منهما، وهكذا وبعد مدة قصيرة من مراقبة بيتر سيملنگ سمع صوتا يشبه مواء القطة. ما الذي حدث؟ هل هنالك عدوّ يطوف بالمكان حول الخيمة؟ لقد رأى وجها يشبه الحيوان مختبئ بين الادغال، تمنى لو أن القمر كان مشرقا، اذن لاستطاع أن يرى بوضوح اكثر في هذا الظلام.

هل يوقظ الصّياد؟ سوف يكون ذلك سخفا منه، فهو رجل بما فيه الكفاية لمواجهة الخطر وحده. رفع بيتر سيملنگ حجرا والقى به باتجاه مكان الدخيل فسمع صوت وقوع الحجر على الارض تبعه عواء وأنين، وهكذا فان المعتدي ليس بشرا، انه مجرد حيوان بري، ولكن المواء عاد ثانية، وعلى بعد خطوتين رفع سيملنگ بندقيته وتمتم .

- «انك تشوش هذا السلام».

ثم ضغط على زناد سلاحه الناري

عندئذ قفز مايكل برانك عند صوت الطلق الناري الى جانب سيملنگ وسأل «ما هذا!».

أشـــار سيملنـك الى الادعـال المتحـركـة ثم أخـرج الرصاصة الفارغة وأعاد حشو البندقية. عندئذ لمح مايكل برانك ومضة لون خفيف من فرو الحيوان المتحرك فصاح:

- «انتبه! نمر!».

لم يكن هنالك وقت للفرار فقد وثب القط البرّي عليهما من خلال الادغال، فنبّه برانك قائلا:

- «انتبه، صوّب بين عينيه وفكه!».

أطلقت رصاصتان، عوى النمر واهتز رأسه الضخم وجثا على الارض.

- «ارجـع خلف الخيمـة وراء الشجرة» صاح برانك ولكن سيملنگ في تلك اللحظة داس على حبال الخيمة فزلت قدمه ووقع على الأرض وقبل أن يستطيع الوقوف على قدميه مرة ثانية وثب النمر فوقه وضربه بقوة فتدحرج على الارض الى المنحدر العشبي المتدرج. عندئذ صوب برانك مسدّسه الى النمر وأطلق رصاصتين الى رأسه فسقط ميتا، لقد أنقذت حياتهما. كان سيملنگ يرتجف بشدة.

- «امير تجسس البرية» قال الصّياد بابتسامة ثم أضاف

هذا ما يطلق الناس في الاوريانكا Uriankhai على النمر السيبريي .

ثم وقف ينــظر الى الحيوان الكبــير بصمت ، سلخ الرجـلان جلد الحيوان ونشراه ، لقد كان ثقيلا ليحمل ولكنه يساوي هذا الجهد ، وفي صباح اليوم التالي واصلا هبـوطهـما الى أسفـل الوادي حتى وصلا الى غابة كثيفة بالاشجار ، وتقدم برانك الى جذع شجرة ورفسه برجله ثم نظر بارتياب الى رفيقه وقال :

- «ما رأيك في فكرة بناء طوافة؟ فبوساطتها نستطيع أن نصل الى أسفل (التسچاجا) أسهل وأسرع مما لو مشينا خلال الغابة» . وافق بيترِ سيملنگ على الفور وهكذا قاما بقطع مجموعة من سيقان الاشجار ثم استعانا بأغصان اللبلاب الكبير وأثمار العلّيق الطويلة اللينة لربط السيقان بواسطتها ، وعند منتصف ذلك اليوم انشاق كانا يدفعان طوافة بسيطة وصغيرة الى داخل الماء ، وقفزا اليها لتحملهما الى التسچاجا ، وسارت الطوافة مع التيار حتى وصلا الى الضفـاف الـرملية ، توقفا وأرسيا الطوافة ثم قاما بجمع

دميه من الصنصف الاصفر ... وصوباه نيضع ...
قبعات تحمي رأسيهما من أشعة الشمس الحامية.

خيّما في تلك الليلة عند مضيق هادىء. جلس بيتر سيمنگ على الضوافه ثم رمى حبلا جعله كصنارة السمك بسرعة الى داخل الماء وجلس ينتظر الصيد، في حين انطلق برانث يستطلع المكان. بيتر سيمنگ لم يكن منتبه الى الحبل الذي رماه وهكذا بدأ يتذكر صباه عندما استطاع أن يمسك بسمك نهري مرقّط كبير في يده العارية، ومنذ ذلك الحين كان يخصص ساعات عديدة لهوايته المفضلة المحبوبة، وفجأة اهتزّ الحبل، قبض بيتر على الحبل بشدة وربطه حول ساق شجرة ثم بدأ يسحب الحبل بكل قوته عندئذ ظهرت زعنفة السمكة العلوية فوق سطح الماء ثم اختفت مرة ثانية.

في مكان ما تحت الماء استقرت السمكة، سحب بيتر سيملنگ الحبل بحزم مرة ثانية، كان يعلم أن السمكة الكبيرة أصبحت ضعيفة. فجأة قفزت السمكة الى الاعلى - رأس اسود عريض، شاربان عائمان يمينا ويسارا، ظهر

أسود مغطى بلون اخضر، انه سمك القرموط.

في تلك اللحظة سحبها سيملنگ بقوة الى الضفة، لقد كانت كبيرة جدا مددها على الجرف ثم انحنى وبدأ يبقر بطنها.

دوّى طلق ناري، لم يستطع سيملنگ أن يتأكد من اتجاه الطلق، ولكنه وثب وسط الادغال واستمع. مايكل برانك لم يعد بعد، هل هو الذي أطلق النار؟ كان كل شيء يبدو كما لو أن احدا ينادي من أشجار الشربين فوقه، وهكذا غطى فمه بيده وصاح مجيبا:

ـ «هلو! هنا!».

أعاد النداء ثلاث أو اربع مرات ـ ولكنه لم يسمع شيئا، ثم جمع بعض الأخشاب وأشعلها، واطلق عيارا ناريا في الهواء. لقد كان من العبث البحث عن الصياد، وهكذا جلس سيملنگ ينتظره ـ بعد نصف ساعة سمع وقع أقدام بالقرب منه، لقد عاد برانك، شعر سيملنگ بانه كان وحيدا جدا من دونه، تمتم سيملنگ.

ـ «أنا لم اعتقد بانك سوف تبتعد عن المخيم».

ـ «لم أقصد أن أذهب بعيدا ولكنني عندما كنت فوق هناك».

أشار الى منحدر الضفة العلوي، «وجدت آثار اقدام»

ـ «آثار أقدام؟» سأل سيملنگ مرتبكا.

أومأ برانك قائلا:

ـ «انها ترشد بشكل مستقيم الى السهل المرتفع، بعد ذلك اختفت ولكن عندما أشعلت عود الثقاب اكتشفت انها تقود الى النهر هنا».

ـ «وذلك عندما اطلقت الرصاص؟» سأل سيملنگ.

ـ «نعم لا حذرك. فمن المحتمل ان يكون لص التايگا باقيا بالقرب من الماء. انني متأكد من انها يجب أن تكون آثار أقدام احد اولئك اللصوص».

وهكذا قررا أن يهربا ففكا الطوافة، وانزلقا بصمت الى داخل الجدول على مهل. راقب سيملنگ اختفاء سمكة القرموط على الشاطىء. هل كان مخططا بصيد هذا الوحش، ولكنه لم يكن يتوقع بأنهما سوف يتركان مخيمهما في تلك الليلة.

كانا يتحركان مسرعين مع التيار، لاحظا ان على يمينهما ويسارهما على الضفاف وجود الاشجار والشجيرات منتشرة هنا وهناك. انطلقت الطوافة بسرعة بين الموجات الهادرة حتى أتيا الى ضفة رملية بيضاء أمامهما فاتجها اليها وأرسيا مركبهما وربطاه الى جذع شجرة ونصبا خيمتهما ثم سقطا نائمين على الفور.

في الصباح المبكر لليوم التالي أمسك سيملنگ بسمكتين صغيرتين ثم أتى بالخشب ليصنع نارا صغيرة ولكن برانك منعه من اشعال النار حالا فقد كان يريد أن يفتش الضفة بحثا عن آثار أقدام ان وجدت. فآثار الاقدام التي وجداها في اليوم السابق كانت دليلا كافيا على انهما ليسا منفردين في الجوار، بيتر سيملنگ بقر بطن السمكة وعندما انتهى من تنظيفها حمل بندقيته وتبع صديقه فقد كان يشعر بأنهما يجب أن لا يفترقا، فوجد برانك مضطجعا على بطنه داخل تجويف صغير الى الاعلى من المنحدر، بعد لحظات وقف وأوما الى سيملنگ وأشار الى الارض. - «ما الذي تراه ؟»

انحنى سيملنگ الى الارض ثم استدار شاحبا وقال:

- «آثار اقدام.. شخص ما يلبس جزمة!».

- «نعم. لقد تلوثت قليلا بوساطة المطر. ولكنني أعتقد ان عمر هذه الاثار لا يتجاوز الاسبوع».

- «هل تعتقد أن أناسا عديدين مرّوا من هنا في أوقات مختلفة من عهد قريب؟».

- «نعم».

كان يبدو واضحا عدم وجود أحد في الجوار لعدة ايام جعلهما مطمئنين نوعا ما، وهكذا استدارا عائدين. عندما تناولا طعامهما، وقف الصّياد مرة ثانية وقال:

- «يجب أن نتبع آثار الاقدام مرة ثانية حتى نتأكد أن هؤلاء الرجال قد ذهبوا فعلا».

وهكذا ربطا مركبهما في مدخل مظلل أمين. آثار الاقدام كانت قد اختفت قرب النهر صانعة انحناءة عريضة قادتهما الى داخل الغابات حتى أتيا الى الخلاء المعشب الفسيح، لم يجدا هناك أية آثار مطلقا. برانك ترك بيتر سيملنگ عند منطقة اختفاء آثار الاقدام وعبر

المروج ثم عاد بعد ساعة من الزمن.

- «لقد وجدت آثار أقدام مرة أخرى. هنالك الى الامام توجد سهول مرتفعة معشبة اخرى، وعلى أحد هذه السهول سوف نجد حقل (اندغي سيهوز).

وهكذا استمرا بالتقدم حتى دخلا منطقة الاحطاب فوجدا آثار أقدام دب حديثة، وهذه الاثار قادتهما الى الروضة التالية، وبصعود قلق تبعا آثار أقدام الرجال والحيوان حتى استطاعا أن يريا تألق الروضة خلال الاشجار.

عند حافة الروضة وجدا فضلات وجبة الدم: عظام عجل منثورة هنا وهناك، ودماء جافة على العشب، نظر الرجلان بصمت الى اكتشافهما، كيف استطاع العجل أن يأتي الى هذه البرية الخالية من السكان؟ يجب أن يكون هنالك حقل في الجوار، أخذا يسرعان، الآن بدا الشيء الاكيدأن آثار الاقدام التي تبعاها يجب أن تكون لأحد القرويين الذين يفتشان عنهم. قررا أن يصلا الى الحقل قبل هبوط المساء وهكذا فقد أسرعا لاهثين حتى وصلا الى

حافة منحدر متدّرج امتد الى أمامهما تسلقاه بسرعة. وهناك قرب صفة النهر رأيا بقايا بيت أتت عليه النيران. وامتدت قربه أرض حشيشية مسيجة باضلاع متكسرة وبسرب من القطيع يرعى بسلام.

لم يتجرأ الرجلان بالاقتراب من البيت الخشبي حتى حلّ الظلام تماما، فوجداه قد دمرّ، ونثرت من حوله الادوات المنزلية، وملابس رجال ونساء معلقة على حبل قرب النهر.

بالقرب من الغابة وجدا ضريحا حديثا، سمر اليه عمود خشبي لم يكتب عليه اسم.. لا شيء.

وقف الرجلان صامتين ومصدومين، أنزلا قبعتيهما لصلاة قصيرة ثم نظر احدهما الى الآخر، أخيرا اشار برانك بسرعة.

- «انه حقل اندغي سيهوز».

تركا المنزل وأقاما خيمتهما في ظلال صخرة.

الذهب في جبال التانو - أولا

في الصباح الباكر لليوم التالي فكر الصديقان بأنهما لن يتمكنا الان من إرجاع النفائس الى أصحابها الشرعيين، عندئذ أخرج مايكل برانك خريطته من حقيبته ثم نشرها وقال:

- «يمتد وادي التسجاجاTschaja زهاء ستين ميلا حتى

نقطة اتصاله بنهر الخمچكKhemchok الذي ينساب بموازة التسچاجا الى الشمال الشرقي، وهناك يوجد الكثير من عوائل المان الڤولگا الذين يعيشون على شكل مستوطنات كبيرة نوعا ما. دعنا نسلمهم هذه النهائب النفيسة ونحذرهم في الوقت نفسه».

وهكذا بدأ الاثنان بعبور النهر ثم أخذا يشقان طريقهما خلال النباتات المتشابكة على السهول الواسعة الممتدة على المنحدرات، وعند حلول المساء وصلا الى منطقة لا أثر لاشجار أو أدغال فيها، فاقاما مخيمهما هناك ثم أشعلا نارا صغيرة من مجموعة من الأغصان الجافة.

وفي اليوم التالي وصلا الى طريق بين قمتين عندئذ قال برانك:

- «سوف نواصل التقدم لعدة أيام حتى نهبط الى وادي الخمچكKhemchik ثم واصلا طريقهما حتى أتيا الى مستنقع أسود هادىء فعبراه بالقفز من مجموعة من الادغال الى اخرى ثم وثبا بسرعة الى الارض المعشبة الجافة

واستمرا بالتقدم محاولين الاّ ينفصل احدهما عن الآخر، ولكن عندما رفع بيتر سيملنگ رأسه متفرسا حوله

استطاع أن يلمح الصياد بعيدا عنه، يقفز بين الأدغال الكثيفة البعيدة.

هل عليه أن يغير اتجاهه؟ نظرة اخرى اخبرته انه من المستحيل عليه أن يتعقب خطواتـه.. فالادغال التي حملته قبل قليل لم تتسطح مرة ثانية. وخطوة واحدة قد تساوي حياته، وهكذا لم يعد أمامه الاّ ان يتقدم الى الامام وسوف يلتقيان مرة ثانية عند الجانب البعيد. حينئذ سمع نداءا من برانك:

- «احذر! اتجه يسارا! مستنقع مفتوح على يمينك!».

- «نعم!» صاح مجيبا واستمر متقدما في طريقه ونداء برانـك كان يدوي بين أشجار الحور الرومي، ماذا كان يعني بـ «مستنقع مفتوح» الى اليمين، امتدت الى اليمين ما يشبه الأرض الثابتة، حاول أن يقفز قفزة طويلة فوق بحيرة كبيرة - ولكن الأرض الطينية الموحلة البعيدة سحبته بقـوة الى داخـل أعـماقهـا أمسـك بجنون غصن شجرة صفصاف قريبة منحنية وصاح:

- «مايكل! انني اغرق!».

ولكن عواء الـريح وارتـطام الاغصان في الماء كتمت صوت صياحـه على طول المستنقع القاسي الفارغ. لقد كافـــح بوحشية ولكن في كل لحظة تمـــر كانت الارض تسحبه أبعد الى الاسفل، صرخ مرة ثانية بصوت يائس أجش ولكن ليس هنالك من مجيب.

فجـأة، أحسّ بجذور ميتة تحته أعطته موطىء قدم ليقف عليه وبـذلـك استطاع أن يتسلق قليلا الى جذع شجرة الصفصاف، الان هو يستطيع أن يسحب نفسه الى خارج المستنقع. سقط بيتر سيملنگ على الأرض الصلبة القريبة مرتجفا من البرد، نظر بيأس حوله، الى أين عليه أن يقفز بعد ذلك؟ لقد فقد احساسه بالاتجاهات، كان عليه أن يجد مهربا آخر، وهكذا وبحذر بدأ بالتقدم.. والتقـدم.. والتقدم. أخيرا وجد نفسه يقف على أرض صخرية ثابتة وأمينة، كان عليه ان لا يتوقف حتى يصل الضفة البعيدة، كانت أسنانه تصطك من البرد، عندئذ سقط في نوم عميق منهكـا تمامـا. وعنـدما استيقظ نظر حولـه، لابـد انـه الصباح. توقف بصعوبة مترنحا فوق

العشب القصير الى أعلى المنحدر ثم سحب قطعة من اللحم المجفف من حقيبته ومضغها فشعر بالتحسن. والان: هل يطلق عيارا ناريا في الهواء اشارة لمايكل برانك؟

قام باخراج الرصاصة الرطبة من بندقيته وجففها ثم قام بتنشيف وتنظيف ماسورة البندقية، ثم أعاد حشوها ثانية واطلق الرصاص في الهواء الى الغيوم المتموجة.

أصغى بعض الوقت لكن ليس هنالك أي صوت ما عدا دوي رصاصته، بزغ الفجر وارتفعت الشمس في كبد السماء، وفي تلك اللحظة وعند الجانب البعيد من المضيق المستنقعي الكبير، استطاع أن يلمح نارا تشتعل، اذن فلابد أن هنالك رجلا بقربها! وربما يكون مايكل برانك!

وبأقصى ما يستطيع من سرعة قفز سيملنگ راكضا وقد نسي انهاك جسمه حاملا رزمته الثقيلة في الأميال الطويلة الممتدة نحو الامام الى أسفل المنحدر حيث حافة المستنقع، وبعد نصف ساعة من الركض المتواصل وصل الى قمة الاخدود الذي كانت تشتعل فيه النار، وعندها

ظهرت صورة مايكل برانك امامه فركض باتجاهه والقى بنفسه اليه، انه مايكل برانك نفسه!

- «هل أنت على ما يرام!» صاح الاثنان معا.

شعر (سيملنگ) حينها بأن حملا ثقيلا قد رفع عنه، ساعده برانك للوصول الى النار وبأبدال ملابسه الرطبة ولفّـه بملابس اخرى جافة وبجلد الوشق الذي كان ما يزال يحمله. وفي المسـاء سقط سيملنگ محموما قرب النار إلا ان (برانك) اعتنى به حتى انخفضت درجة حرارته.

عنـدما افترق الصديقان في اليوم السابق كانت لدى مايكل برانك مشكلة كبيرة أيضا في عبور المستنقع، فقد صاح وصـاح على سيملنگ من دون جدوى. أدرك ان رفيقه قد ضلّ طريقه في مكان ما خارج المستنقع وهكذا قرر أن يشعل النار ليرشد رفيقه على مكانه، وقد نجحت خطته.

بعد مضي ثلاثة أيام انطلق الرجلان في رحلتهما جنوبا، قطعا في اليوم الاول أميالا قليلة فقط على طول السهل

المرتفع بين (التسچاجا) Tschaja و (الخيمچك) Khemchik وفي اليومين التاليين تاها غربا، وفي اليوم الرابع كان عليهما تسلق الجرف الصخري المتدرج على الجانب الآخر، وفجأة وجدا انهما قد وصلا الى مضيق صخري موحش قرب بحيرة تنتشر على ضفافها الرمال الغرينية، انطلق مايكل برانك ليستطلع المكان في حين جثم سيملنگ قرب البحيرة الراكدة محاولا أن يمسك بحفنة من الرمال فغرفها بيديه وتركها تنساب بين أصابعه وعندها استقرت مع الحجارة المتبقية في راحة يده ذرة صغيرة جدا من الذهب. إذن فان هذا الجدول يحمل الذهب الغريني، ذهب جبال (التانو ـ اولا) Tannu - Ola وفجأة تيقظ باحث الذهب في داخله.

جرى بيتر سيملنگ الى الجرف الصخري فوجده قد حفر فيه وتكومت الى جانبه اكوام كبيرة من الرمال، انه مخيم مهجور لمنقبي الذهب. وفي أثناء ذلك عاد (مايكل برانك) موضحا:

ـ «هنالك الى الاعلى يوجد مخيم مهجور، فآثار

الاقدام لا يتجاوز عمرها اكثر من ثلاثة أو اربعة أيام».

- «ذلك ليس مفاجئا» قال سيملنگ بسرعة ثم اضاف:

«فهنالك الى الاسفل يوجد مخيم لباحثي الذهب مهجورا أيضا. ثم أشار الى الكهوف الصخرية. مشى الصّياد اليها بصمت ثم قال:

- «لن نتمكن من البقاء هنا واتباع النهر، سوف ندور حول الجرف الصخري ونخيّم في مكان ما الى الاعلى الى يمين النهر».

- «ولكن الا نبقى لنبحث قليلا عن الذهب في الرمال؟» سأل سيملنگ بحيرة.

- «ذهب؟ ذهب؟ انني لا أبحث عن الذهب!» قال الصياد مستديرا ليواجه صديقه، وقد تصلّبت ملامحه ولكن عندما رأى طيبة سيملنگ قال برقة:

- «لا بأس، سوف نبقى هذه الليلة فقط، ولكن يجب أن نواصل المراقبة أثناء ساعات الليل، فمن يعلم متى يعود المنقبون؟» بيتر سيملنگ لم يعترض، فقد كان الصّياد

على حق، فرحلتهما هذه ليست للبحث عن هذا المعدن المغري البّراق بل انها لغرض آخر. وهكذا قررا أن يكون المكان المناسب لاقامة خيمتهما في داخل كهف كبير قرب الصخور التي حفرت بوساطة باحثي الذهب، تلمسا طريقهما داخل الكهف المظلم وبسطا خيمتهما. حمل مايكل برانك بندقيته على كتفه وقال:

ـ «احذر، سوف استطلع المكان، واذا رأيت آثار اقدام حديثة فسوف نذهب فوق المنحدر تحت الأشجار.»

واختفى بين الادغال على المنحدر، أمّا سيملنگ فقد جال خارج الكهف ليستكشف المكان حتى اتى الى كهف عميق آخر، وهناك رأى أدوات غسل الذهب مكومة بترتيب، نظر الى الأحواض باضطراب: اذن فانهم لم يذهبوا، يجب أن يخبر مايكل برانك. عاد الى الكهف وطوى رزمهما وخيمتهما ووضعها في داخل جحر جاف في الجدار الرملي.

فجأة سمع خطوات أقدام، لقد عاد مايكل برانك وألقى بنفسه لاهثا الى الداخل:

ـ «هناك الى الاعلى! فوقنا تماما! هنالك رجال في كل مكان! ربما عشرون أو ثلاثون منهم هنا في الجوار يجب أن ننـطلق من هنـا عنـد حلول الظلام». وعند غروب الشمس قال الصياد:

ـ «حان الوقت، ابق انت هنا لحظة وأنا سوف اذهب لاتأكد من خلو الطريق فوق المنحدر الى اليسار» وانسل خارجا كالقطة . فجأة دوّى طلق ناري مزّق السكون، قفز سيملنگ عائدا الى الداخل، تبعته خمس اطلاقات نارية سريعة وعندها نادى الصياد:

ـ «بسرعة! اتبعني! الى هذا الطريق!».

بين لصوص التايگا

جثم الرجلان خلف صخرة كبيرة بارزة.

ـ «من هؤلاء الرجال؟» سأل بيتر سيملنگ بهدوء.

ـ «لصوص التايگا».

بقى الرجلان مختبئين مدة طويلة بصمت، أخيرا نظر مايكل برانك حوله، شيء ما يتحرك خلف المنحدر،

فقال:

ـ «تعـــال! يجب أن نذهب فوق الـــوادي. اتبعني بهدوء، يجب أن نبقى قريبين من البحيرة».

ولكن عندما زحفا، اطلق عيار ناري على بعد عشر خطوات منهما، تبعه ثلاث اطلاقات متتالية اخرى، فقفزا خلف شجرة شربين كبيرة ثم ركضا مسرعين حتى وصلا الى الجرف الصخري قرب البحيرة.

ـ «ليس هنالك طريق للعودة، ارفع بندقيتك واقفز الى المـاء» صاح برانـك ثم قفـز، تبعـه سيملنگ الى داخل البحـيرة السوداء حتى وصلا الى الضفة الثانية ـ وعندما خرجا هربا راكضين بين الأدغال وانزلقا مرة ثانية الى وادي النهر الضيق. كانا ينصتان بين آونة و آونة الى أي صوت غير اعتيادي ولكنهما لم يسمعا بعد ذلك أي أصوات أو اطلاقات نارية اخرى ـ عندئذ همس برانك:

ـ «ابق هنا لحظة، فانني ذاهب لاستكشف المكان».

جثم بيتر سيملنـگ خلف صخـور بالية بفعـل الماء مصغيا. الان ولاول مرة تذكـر سيملنگ بأنهما قد نسيا رزمهما في الكهف قرب بحيرة الذهب، وليست هنالك أية فرصـة للرجوع الى الكهف لاسترجاعها، وهكذا فانهما

الآن من دون طعام ومن دون نهائب اللص التي حملاها معهما فوق الجبال ونهر الثلج والمستنقع، انهما يحملان بنادقهما فقط. بعد فترة من الزمن سمع صوت خطوات برانك الذي نظر الى رفيقه بقلق وقال:

- «حسنا، الان نستطيع تسلّق هذا الجانب، لقد اكتشفت بعض الطرق مع التيار» كان برانك يتكلم بهدوء مما سكن خوف سيملنگ.

-«ما الذي يجب ان نفعله؟».

- «علينا أن نعبر الجدول مرة ثانية ونحاول التسلّق الى الجانب الآخر». وهكذا زحفا مرة ثانية حتى وصلا الجدول، وعبراه الى الضفة الثانية وبدأا يقطعان طريقهما بين الادغال الشائكة حتى المنحدر المتدرج والذي كانا يتسلقانه بوساطة التعلّق بالاغصان للوصول الى الاعلى. فجأة أحسّ الصّياد الذي كان يتسلّق الى الامام بأن الصخور القادمة كانت خالية من الأدغال ليتمسك بها، كانت صخور سوداء رطبة عارية!

وهكذا تسلقا عائدين خطوة فخطوة على طول الجرف الصخري ولكن وبعد عشر دقائق كانا قد ضربا الصخر مرة ثانية، لقد وقعا بفخ.

- «لا أحد يستطيع أن ينسحب من هنا ولا حتى فأرة لعن مايكل برانك بهدوء. «يجب أن نعود» قرر أخيرا.

عندما أنزل سيملنگ نفسه بالتدلّي على حافة الصخرة شعر بالاغصان تحته كما انه لم يجد موطىء قدم. تزحلق مسافة ثلاثة اقدام اخرى فوجد نفسه متدليا في وسط الهواء.

- «يوجد ثقب في الصخرة هناك!» هتف باندهاش.

- «ثقب؟ دعني احاول؟» فجأة تحرك برانك بسرعة، وسحب سيملنگ على الحافة الضيقة وأنزل نفسه، وفعلا لم يجد موطىء قدم في الجرف الصخري تحته، وعندما تحسس الثقب بحذر وجد بأنه يقوده الى انحدار اكثر الى داخل الجبال. في البداية شعرا بأن الحجر تحت أقدامهما كان متخلخلا ولكن بعد ذلك بياردات أصبح الحجر صلبا، نظر الاثنان الى الظلام أمامهما، هل ان الكهف ينتهي هنا؟ ربّما انه شقّ عريض في جانب الجرف الصخري. وتقدما الى داخل الكهف من دون صعوبة وعندئذ قال برانك بسرعة:

- «اعطني كبريتك!».

وقام باشعال أحد الاغصان الجافة الذي اقتطعه من

الأدغال عند تسلقهما فاشرق الضوء الى الداخل وتسلقا الى مدخل الكهف ثم القيا بنفسيهما قرب مجموعة من الصخور المتفككة. بعد فترة من الراحة توقف الصياد وقال:

- «ابق انت هنا واحرس المدخل. فأنا سأذهب لاستكشف المنحدر فوقنا، واذا سمعت نداء ناعما كصوت البوم فهذا يعني : اتبعني».

وعندما ذهب بعيدا وسط الادغال جلس بيتر سيملنگ تائها في أفكاره حتى قطعها صوت بومة، وقف بهدوء وبدأ بالزحف بعد الصياد حتى وقف الى جانبه. في تلك اللحظة سمعا أصواتا فوقهما، رجلان كانا يدمدمان بغضب ثم بدأ أحدهما بالهبوط الى البقعة التي يقفان فيها، الآن أصبح على بعد ياردات الى يمينهما، أحس بيتر سيملنگ ان برانك كان متهيئا للهجوم وبقفزة سريعة وثب برانك على اللص رابطا يديه حول رقبته وطرحه الى الأرض ثم لكمه بقبضته فسقط مغشيا عليه وتدحرجت بندقيته الى أسفل الاحجار المتفككة وأطلقت منها رصاصة عندما لامست الأرض البيضاء الى الاسفل. وهذه كانت اشارة لهيجان مروّع للصوص الذين أتوا من

الاعلى ، ومن الاسفل ، ومن الامام ، ومن كل الاتجاهات الى المكان الذي اطلق منه النار. همس مايكل برانك .

- «بسرعة! لنعد الى الكهف» .

أمسك مايكل برانك باللص الفاقد الوعي بوساطة ياقته وسحبه خلفهما بين الادغال ، قرع طلقان ناريان فوق رؤوسهم تحت المنحدر، أخيرا وصلوا الى الكهف في الوقت المناسب. انتشر اللصوص في الوادي وبدأوا يطلقون الرصاص وتكاثرت الأصوات هنا وهناك. عندما وصل اللصوص الى المكان الذي اختبأ فيه الرجلان عجزوا عن ايجاد رفيقهم ، وهكذا توقفوا عن اطلاق النار. استطاع الصّياد أن يفهم كلمات قليلة .

- «انهم ينادون رفيقهم الذي اختفى» .

انحنى الصياد فوق الرجل واداره على ظهره ثم سحب شريطا جلديا من جيبه وربط يديه خلف ظهره. وشيئا فشيئا أصبح الوادي هادئا مرة ثانية .

بزغ الفجر فوق الوادي ببطء ، وأشرقت الشمس على الجانب البعيد للبحيرة الصغيرة ، عندئذ استعاد السجين وعيه واضطجع على أرض الكهف .

فجأة وبعد تفكير قصير قال بيتر سيملنك :

ـ «ما فائدة الاحتفاظ بهذا الرجل هنا؟ سوف نخرجه الى أصدقائه وبعد ذلك حتما سوف يكونون حذرين في كيفية اطلاق النار» وهكذا حملاه ثم اسنداه مقيدا على بقعة مرتفعة من الصخور امام الكهف فغطى مدخل الكهف بجسمه، وعندما علم ما الذي يدور في ذهنهما بدأ بالصراخ ولكن الاطلاقات النارية عادت مرة ثانية من عصابته، فبدأ يصيح بصوت اعلى. ثم عاد الصمت مرة ثانية فاللصوص قد عرفوا ان الهدف المنصوب لرصاصهم هو رفيقهم.

كيفما كان فان مايكل برانك لم يكن بالرجل الذي يحمي نفسه على حساب الآخرين فنهض الى اللص وتكلم معه بالدنكيني:

ـ «اخبر اصدقاءك بأننا سوف نطلق سراحك حالما يتجمعون كلهم عند شاطيء البحيرة. وسوف لن نطلق الرصاص لكن اخبرني اولا كم عددكم؟».

في الحال نادى اللص بعرض برانك لرفاقه، ولكنه أقسم بأنه لا يعلم عدد الرجال في عصابته تماما.

عرض برانك كان له تأثيره المباشر، فقد توقف اطلاق

اللصوص. وبدأ اللصوص بالتجمع قرب الحجارة عند شاطيء البحيرة، كان أحد اللصوص رجلا ضخما يرتدي حزاما احمر عريضا، نظر بيتر سيملنگ الى الرجل عن بعد ٢٠٠ ياردة ـ لقد كان بولانكا!

لم يستطع الصديقان الخروج الى المنحدر فقد يكون ممتلئا باللصوص فمن يعلم كم عدد البنادق المصّوبة الى مدخل الكهف، عندئذ اقترح بيتر سيملنگ.

ـ «دعنا نذهب لنستكشف الكهف من الداخل، فربما نجد طريقا آخر للخروج» سحب مايكل برانك بعض الاعصان اليابسة المتجمعة عند مدخل الكهف، ثم تلمسا طريقهما الى الداخل حتى استطاعا أن يريا بوساطة ضوء النهار الخفيف فتحة لبئر منجم فاستدار لبيتر سيملنگ وقال:

ـ «ربما بئر منجم نحاس مهجور يخص السكان الاصليين الذين عاشوا هنا منذ مئة سنة مضت».

ـ «ونحن الى أين يقودنا هذا الممر في الجانب الآخر للمنجم؟» تساءل سيملنگ وخطا الى الامام على طول

الثقب الطويل المظلم: «لنستمر بعد» ثم التقط بيتر سيملنگ غصنا جافا من مايكل برانك وأشعله وتقدما الى الامام حتى وجدا بئر منجم آخر أمامهما، وكانا يتقدمان بمحاذاة النهر بعيدا عن وادي النهر. بعد ذلك توقفا يصغيان، ليس هنالك صوت خلفهما، فقط تقطر مياه على الصخرة الزلقة على أرض الممر، لقد اخذت العصابة السجين ويبدو انهم اوقفوا اطلاق الرصاص. وضع سيملنگ الشعلة في شق صغير وبدأ يحفر بيديه وكان يرمي بالحجارة بعيدا، وعندما انكشف جدار الرواق صاح برانك فجأة: «انتبه هذه الحجارة!».

تراجع بيتر سيملنگ غريزيا عندما سقط اللوح الصخري المسطح الكبير من السقف بعد ذلك بدأ سيملنگ يعمل بحذر اكثر وكان الصديقان يتناوبان عمليات الحفر ومراقبة بصيص اللهب الصغير.

فجأة توقف سيملنگ عن الحفر وأشار الى امامه من دون كلام - ضوء اصفر شاحب مشرق على الارض؟

وفي اثناء ذلك رأى الصياد سبب توقف سيملنگ عن

العمل. ذلك الضوء على الارض! هل انه مجرد شق في الصخر؟

تقدما الى البقعة المضيئة على أرض الرواق الى طريق متعرج أمامهما حتى وصلا الى نهايته وعندئذ وكز سيملنگ رفيقه بكوعه وصاح:

- «انظر!».

وقف الاثنان ينظران بفرح ودهشة الى ضوء النهار يغمر شقوق الصخور الممتدة أمامهما. اندفعا الى الامام خلال الثغرة، انه ليس اكثر من صدع ولكنه عريض كفاية ليجعلهما يمران.

وهناك على بعد عشرين ياردة ألقيا بنفسيهما على الارض تحت أدغال النباتات البرية. نظر سيملنگ الى ضوء الشمس.. هذا ليس حلما.

لقد نجوا فعلا.

الصخرة المتحركة

كان الصـديقـان مضطجعين على المنحدر المنخفض غرب الجبال المعممة بالثلوج. الى أين يمتد وادي النهر من هنا؟ كانت الشمس في كبد السماء، لقد قضيا ساعات عديدة في داخـل الجبـال، تسـاءلا ما الذي يحدث في الجانب الآخر عندما تذكرا لصوص التايكا، ثم زحفا الى

داخل أحراش البر ليفكرا بما سيفعلانه بعد ذلك. أخيرا سحب الصديقان بعض الحجارة الكبيرة لسد الشق الكبير الذي خرجا منه ثم نشرا العشب فوق الحجارة ليتأكدا من عدم دخول الضوء الى داخل الممر. وها هما الآن في أمان لساعات قليلة في الاقل. أخيرا قررا ان يعودا في الحال لارجاع رزمهما التي تركاها في كهف الذهب. وهكذا قاما بتسلق المنحدر بحذر الى الامام ثم قاما بالمشي المتواصل حتى وصلا الى الاخدود الكبير فزحفا الى الخلف قليلا.

- «سأذهب وانظر في الجوار» عرض سيملنگ ولكن الصياد ابتسم وقال:

- «أنا لا اريد ان أترك في الخلف». وهكذا تحركا معا سهلا فوق المنحدر وفجأة سمعا قرع طلق ناري فانحنيا في الحال، ولكن بعد دقائق شاهدا أحد اللصوص يركض باتجاه كهف بئر المنجم، اذن فان اللصوص لا يعلمون بأنهما قد هربا. وعندئذ قال مايكل برانك.

- «هيا! دعنا نواصل رحلتنا».

- «أين يجب أن نهبط؟» سأل بيتر سيملنگ.

- «من أسفل البحيرة قرب منحدر المياه الى وادي الكمچك (Khemehik). وهكذا شرعا بالتقدم السريع

المتواصل بين الادغال حتى وصلا اخيرا الى السهل المرتفع المعشب فأشار (مايكل برانك) الى ذلك الطريق:

- «مستوطنو الفولكا الالمان يعيشون هناك بجانب نهر الكمچك الذي يجري عبر الوادي الضيق».

نظر مايكل برانك الى بحيرة الذهب ثم شرعا يتسلقان خطوة فخطوة حتى وصلا الى البحيرة وهناك استطاعا أن يرويا عطشهما وان يبردا حرارتهما من الماء النظيف، أخيرا انحنى بيتر سيملنگ وملأ أحد جيوبه الكبيرة بالرمل الجاف الناعم فنظر اليه مايكل برانك بتأثر وقال:

- «عندما نجد المستوطنين سوف اشترك معك في اختبار محتويات ذهب الرمال».

الآن عليهما أن يبحثا عن كهف الذهب لارجاع رزمهما، حسبا عدد الكهوف، لقد كانا قد تركاها في الكهف السابع وهكذا اتجها اليه ودخلا الى داخله. اختطف بيتر سيملنگ الحقيبة الحاوية على اللحم المجفف بوحشية ثم جلس الصديقان واحدا بجانب الآخر يمضغان طعامهما بشهية بعد جوع طويل وكانا ينظران من وقت لاخر بخوف باتجاه مدخل الكهف. ولكن في تلك اللحظة تساقطت امام الكهف رشة من الرمال تبعها

بعض الحجارة الصغيرة. ولكن ما الذي يحدث، فالجرف الصخري على ارتفاع ٣٠٠ قدم ولا احد يستطيع الصعود اليه، تبعتها رشة اخرى من الرمال، نظر الرجلان بارتباك وسال سيملنك:

- «هل من الممكن ان يكون الجرف الصخري؟».

عندئذ سمع برانك صوت انسحاق صخر غريب الى خلفه، لقد عادت الضوضاء ولكنها كانت فوق العادة كما لو ان احدا يطحن الرمال، والان رشات خفيفة من الرمال وتفكك صخور صلبة.

بسرعة قاما بخزن ما تبقى من اللحم المجفف في رزمهما واستعدا لترك الكهف ربطا الحبال حول الرزم ورفعاها الى الاعلى، ثم انطلقا الى خارج الكهف وعندئذ صدر صوت انشقاق كئيب الى الخلف، لقد مال الجرف الصخري بأكمله تدريجيا فوق البحيرة، انه يوشك ان يسقط الى داخل الماء.. حالا.. وربما اليوم التالي، أو حتى في غضون الساعات القليلة القادمة.

كان بيتر سيملنگ شاحبا كالميت:

- «لقد كدت أن افقد عقلي!» هو تلعثم.

- «أما أنا فقد اعتقدت بان الجرف الصخري قد تحرك

باكمله » اجـاب برانـك، عنـدئـذ أشـار بيتر سيملنگ بصمت الى الشق المتوسع ببطء في خلف الكهف وقال:

ـ «ان الجرف الصخري يسقط الى داخل البحيرة».

فكر مايكل برانك:

ـ «اذا سقط الجرف الصخري الى داخل البحيرة فان مزارعي المان الڤولگا القرويين الذين يعيشون على ضفاف (الكمچـك) المسـطحة سوف يقضى عليها. يجب أن نحذر أبناء بلدنا بسرعة! بسرعة! قبل أن يسقط الجرف الصخري!».

وهكذا بدأ الاثنان يركضان على طول جانب البحيرة باتجاه الفجوة الضيقة بين الصخور. حتى رأى الاثنان ان أشجـار الحـور الـرومي على قمـة الجرف الصخري قد أصبحت معلقـة من جذورهـا فقط في الهواء. لقد كان عليهما الوصول بأسرع ما يستطيعان، انهما في سباق مع الزمن.

الإنهيار

بعد ساعات قليلة من حلول المساء عند الجرف الصخري الذي بدأ بالانغلاق الذي تركه الصديقان، اقترب رجل الى بحيرة الذهب من الشمال. لقد رأى آثار الاقدام التي تركها الرجلان في الوادي وخمن ان عمرها لا يتجاوز أربعا وعشرين ساعة. آثار الاقدام كانت تدل على ان

اصحابها يلبسون جزما قوية ذات كعب، ولكن من الذي يلبسها في الاوريانكا؟ فالدنگنيين غالبا يربطون أرجلهم بالقماش أو بأربطة جلدية أمّا السوويتSoiot فهم حفاة الاقدام دوما. ان مستوطني (الكمچك) فقط هم الذين يلبسون مثل هذه الجزم، ولكن ما الذي يفعلونه هنا في جبال (التانو ـ اولا)Tannu - Ola المنعزلة.

تسلّق الرجل الغريب صفوف جبال (التانو ـ اولا) منفردا ثم تثاقل في مشيته منهوكا. كانت ملابسه من الجلد ممزقة وذابلة، أمّا سراويله فقد تثقبت نتيجة لجهاده الشاق خلال التايگا الكثيفة والشائكة. جزمته فقط هي التي كانت تبدو قوية ومتينة.

اخيرا توقف عند وادي النهر الصغير وألقى بنفسه خلف أدغال واقفة النمو، ليس هنالك علامة على الحياة في الوادي. ان ذلك الغريب الملتحي كان يبدو كالمستوطنين، انه اوربي من الغرب، انه (اندغي سيهون)، المستوطن المنعزل الذي يعيش بجانب (التسچاجا) Tschaja وهناك بين بيته وحقله، وقد ذهبت معه زوجته الوفية عندما سافر الى بيته المنعزل الجديد. لقد كانت تعتني بالماشية التي كانت اعدادها تتزايد في حين

انه كان يذهب ليصطاد في الغابة . زوجته (انجي) Anije كانت تعرف كيفية استعمال البندقية لذا فقد كان لا يقلق عليها عندما يتركها وحدها عند ذهابه للصيد .

ولكن في إحدى الامسيات وقبل ثلاثة اسابيع لاحظ ظهـور رائحـة دخان غريبة ترتفع باتجاه الغابة من بيته فأسرع عائـدا وعنـدما وصل الى هناك وجد أن بيته قد احرق وزوجته ملقاة ميتة الى جانب الخراب . . أصوات اطلاقات نارية من الخلف .

لقد أقسم أن لا يعود الى بيته حتى ينتقم لها . وهكذا بعـد أن قام بدفنها بدأ بتتبع آثار أقدام غريبة قادته الى (التسچـاجـا) حتى النهر على طول الضفة المعاكسة ثم استدارت غربا باتجاه (سيبريا) وجبال (الالتي) . ولكن ظهـور عاصفـة ثلجية بعض الوقت أدى الى فقده هذه الآثـار، فتـاه ثلاثة أيام في الاتجاه الجنوبي من دون اي هدف محدد، الآن قرر أن يتجه الى (الكمچك) لاخبار ابناء بلده قبل أن ينطلق مرة ثانية في أثر اللصوص القتلة .

عنـدئـذ سمع أصوات صياح الى الأسفل فاتجه الى مجموعة من الادغال الورقية متخذا إياها غطاء . الصياح لم يتكـرر. على أية حال لقد قرر البقاء في مكانه، فبعد

قليل سوف يحل الظلام والمكان هنا سوف يكون في الاقل دافئا وجافا وبعيدا عن الريح . وفي اليوم التالي سوف يهبط الى داخل وادي الكمچك .

بعـــد قليل قرع طلق ناري ، يجب ان يكــون فوق البحـيرة ، لكنـه سمعـه مرة ثانية ، وهكـذا تمـدد قرب الادغـال وبهـدوء سحب منظاره الحربي ونظر الى داخل الوادي ، استطاع أنْ يميزهم ، انهم عصابات التانگوت Tangut المنغـوليون . كانـوا يركضــون ذاهبـين وعـائدين بانفعال شديد كما لو أنهم ينتظرون رفاقهم ، وكان أحدهم وهـو عظيم الجسم قد شمـخ فوق المجمـوعة ، انسابت عبـاءتـه خلفـه في النسيم وكـان يبدو انه يعطي الأوامر للآخـرين مشـيرا هنـا وهنـاك . لقد بدأ اللصوص الآن باشعال النار في الأدغال على المنحدر ، لابد أنْ هنالك سرا غامضا ، ساقت الريح النيران باتجاه الانحدار العمودي وحـالا أصبـح المنحـدر بأجمعـه حتى القمة كبحر من اللهيب . انتشر اللصوص يمينا ويسارا من المنحدر ، كان (اندغي سيهوز) يراقب المكان بحذر واستطاع أن يرى ما يشبـه الثقب المـظلم في وجـه الصخر ، لابد انه مدخل لكهف . وقـد تكومت أغصان جافة كثيرة متكسرة أمامه

التهمتها النار الملتهبة بضراوة، ووقف الرجال وراء الصخور، بنادقهم مصوبة الى الكهف. ما الذي يفعلونه بحق الارض؟ هل انهم يطاردون حيوانا بريا في داخل الكهف، دبّ أو أمير التايگا؟

الان جلس اللصوص في حلقة حول النار ثم دخلت مجموعة منهم الى داخل أحد الكهوف وعندما خرجوا كانوا يسحبون أدوات التنقيب عن الذهب الكاملة، قدور ومغارف، ومعاول، وكذلك مجموعة كبيرة من الرزم، تفرس (اندغي سيهوز) بها عبر منظاره الحربي ثم ارتجف، كل هذه هي نهائب جمعت بوساطة هجوماتهم على المزارع والحقول المعزولة وكذلك على المجاميع الصغيرة من الباحثين عن الذهب غير المحصنين. ربما أن هذه الغنائم حاوية على النفائس التي سرقت من بيته، وعندها تذكر بأسى منظر زوجته الملقاة ميتة على الارض ومنظر بيته الذي احترق نتيجة اضرام النار فيه.

فجأة بدأت تتساقط قطرات ثقيلة من المطر على التايگا الداكنة التي بدت باردة وكئيبة، وامتد امامه ما يقارب العشرين من البغال المحملة بالنهائب تمشي الى خارج الكهف. ولكن ما ذلك الانشقاق الغريب؟ وثب على

قدميه غريزيا وقــد نسي بأن رأســه وكتفيه قد اصبحت منـظورة للصوص اذا نظروا الى الاعلى. ولكن ما الذي يحدث عند الجرف الصخري الى جانبه؟ كتلة هائلة من الصخر بدات تتشقق بصوت مروع الى داخل البحيرة. وصدرت صرخات فزع من الرجال الى الأسفل واستداروا الى الصخور التي اندفعت بعنف الى الاسفل فوق أحد الرجال الذي صاح بألم.

هل كان ذلك زلزالا؟ صرخ (اندغي سيهوز) بخوف وبدأ يجري بسرعة والقى نظرة الى التانگوت الذين تفرقوا في كل الاتجاهات والبعض منهم القى بنفسه الى داخل المـاء المعربـد للبحـيرة. رجة مدوية عنيفة فرقعت فوق الجـرف الصخـري اقتلعت الاشجار، وصخور عظيمة طارت في الهواء، وانقلب الجرف الصخري الى داخل البحيرة.

القي معظم مياه البحيرة مزبدا في الهواء وسقط ثانية الى داخـل الوادي كالمطر، أمسك (اندغي سيهوز) بجذور بعض الاشجـار بيأس، ولم يستطع أن يفعل شيئا لكنه تمدّد مرتجفا بين الادغال المتذمرة وأغلق عينيه، لكنه لم يتمكن من نسيان المنظر الذي رآه، أخيرا وعندما سكن

هدير المياه وانشقاق الصخور توقف ونظر الى البحيرة الصفراء المتحركة واكوام الصخور المتزحزحة، وتذكر لصوص (التانكوت) الذين لم ينج احد منهم. بدا سيهوز يهبط باتجاه البحيرة مستعينا بيديه وهناك انتشر الرجال الموتى هنا وهناك. ولكنه شاهد شيئا ما يتحرك الى الاسفل، ركض اليه، انه أحد أفراد العصابة، وعندما ادار الرجل ظهره وجد انه ما يزال على قيد الحياة، فتح الرجل عينيه وتذمر.

ـ «انه سخط الاونكوOnku العظيم» ثم صرخ وأنشب أصابعه في الارض الرطبة وبدأ يتدحرج الى اسفل المنحدر حتى سقط ميتا عند حافة الجرف الصخري، عندئذ اتجه (سيهوز) اليه، نظر اليه فعرف فيه الدنكيني الضخم قائد العصابة الذي يرتدي الحزام الاحمر العريض، وعندها قام بسحب الحزام من الرجل الميت.

نظر سيهوز الى المياه، ماذا بعد ذلك، انه الانهيار سوف يولد الخراب والحزن في وادي الكمچك!

ولكن هذا يعني القضاء على مستوطني الڤولگا الاثنان. وحالا صرخ (سيهوز) يائسا وبدأ يركض ناسيا

انهاكه . لقد حل الظلام على طول السهل المرتفع الموحش الخالي من السكان وكان يركض وحيدا .

ربما . . ربما يستطيع أن يصل الى وادي الكمچك قبل الطوفان .

السيول الجارفة

كان برانـك وسيملنـگ يتقدمان بسرعة الى الاسفل بعيدا عن الشـلالات يحمـلان معهـما النهـائب التي استرداها من اللصوص مع جلد النمر وخيمتهما . كانا ينظران الى الخلف من وقت لآخر خوفا من هجوم السيول الجارفة للبحيرة التي قد تأتي خلفهما فقد كانا يشعران بان

الكارثة وشيكة الوقوع. وكانت التايگا تبدو اكثف عندما هبطا اليها مستعينين بأيديهما حتى أتيا الى حافة النهر وكان عليهما الغوص فيه الى الضفة الثانية وهنا قال مايكل برانك:

- «الان سوف نلتقي بالكمچك حالا» وعندها عبرا النهر وتسلقا لاهثين فوق تل صغير بجانب النهر، وظهر منظر امتداد الكمچك واضحا أمامهما.

- «هل ان ذلك هو الكمچك حقا؟» سأل بيتر سيملنگ بارتياب، فقد كان يتخيل بأن هذا الرافد اكبر كثيرا.

- «نعم» أجاب مايكل برانك باختصار ثم أخذا يتقدمان خلال السهول الواسعة الخالية من الاشجار المعشبة لوادي الكمچك الممتدة أمامهما فقد كان عليهما أن يصلا الى المستوطنين بأسرع ما يمكنهما. والآن وعلى مسافة قريبة في وسط الوادي المنبسط استطاعا أن يريا البيوت الخشبية القوية لمستوطني القولگا الالمان. نظر سيملنگ حوله بدهشة. لم يكن هذا ما تخيله عن حياة مواطني بلده في هذه الاراضي البرية. فقد اعتقد انه سيجد تجمعا فقيرا من الاكواخ التعيسة أو كهوف دق

الشجر في الصخور، كان يعتقد ان القرية لا تشمل اكثر من مساحة مستنقع كتلك القرى السيبيرية العديدة التي رآها. وبدلا من كل ذلك، فقد أوسع خطاه الى داخل شارع نظيف وعريض على نحو لا يمكن انكاره وبيوت خشبية منظمة وجميلة.

عندئذ جاءت النساء والرجال الى خارج بيوتهم، اناس طويلو القامة، زرق العيون، نظروا الغريبين المسرعين. اتجه مايكل برانك الى رجل كان يقف في المقدمة وسأله:

ـ «أين بيت شيخ القرية؟» ومن دون كلام أشار الرجل باتجاه مركز القرية الى بيت خشبي داكن محاط بشرفة واسعة رحبة. دقّ مايكل برانك على الباب المفتوح ثم دخل. عندئذ نهض رجل كبير السن محني الظهر ذو شعر أبيض، من مقعده، كان البيت مظلما لذا فانه لم يتعرف على مايكل برانك ولكنه عندما عرّفه بنفسه أشرق وجه الرجل الكبير وهتف:

ـ «أهلا وسهلا بك في قريتنا! بماذا ندين لشرف زيارة صياد التايگا؟».

عرف بيتر سيملنگ نفسه أيضا، ثم دعاهما الرجل الكبير للجلوس، في تلك اللحظة ظهرت حفيدة شيخ

القرية عند مدخل غرفة خلفية، وهي فتاة صغيرة نظرت بتعجب الى الغريبين.

- «اجلبي الخبز والحليب لاصدقائنا» طلب الرجل الكبير، لكن برانك توقف مرة ثانية بسرعة وقال:

- «ليس هنالك وقت ليضيع. فلدي أخبار مهمة».

جلبت الفتاة ابريقا من الحليب وشرب الرجلان بامتنان، بعد ذلك ومن دون تمهيد بدأ الصياد:

- «يجب أن تتركوا القرية في الحال، خذوا معكم كل ما تستطيعون من ممتلكات، وكل حيواناتكم».

نهض شيخ القرية على قدميه بذهول ثم ابتسم بشك، لكنه لاحظ مظهر الانهاك على وجهي الرجلين، وعلم بانهما قد أسرعا لعدة اميال بهذه الاخبار ثم قال. بحيرة:

- «اوضح ايها الصياد».

- «لقد أتينا من الشمال من وادي (التسچاجا)، حيث وجدنا هنالك بحيرة عند مكان ارتباط الرافد بالنهر على اليسار، وهنالك التقينا بعصابات التانكوت، وهؤلاء كانوا قد حفروا الجرف الصخري بحثا عن الذهب في الرمال، وهنالك عند بحيرة الذهب انفلقت الجدران الصخرية القوية، واذا حدث أن سقط الجرف الصخري

الى داخل البحيرة فان الماء سوف يلقى من مجرى النهر ويأتي مندفعا بسيل جارف الى داخل وادي الكمچك».

- «وهذه السيول الجارفة. . ».

- «سوف تغمر قريتكم. هذا اكيد!». أنهى الصياد كلامه.

بدأ الرجل يتمشى ذهابا وايابا على الأرض المكشوفة وقال اخيرا:

- «يجب أن اتشاور مع رجالي».

خطا مايكل برانك الى الباب، نظر الى الخارج وقال:

- «ليس هنالك وقت للتشاور، فالطوفان سوف يكون هنا قبل الصباح. . أو في غضون ساعات قليلة، وربما حتى دقائق.».

رفع الرجل الكبير رأسه وقد كساه الغضب:

- «هل نترك قريتنا اختلاط الحابل بالنابل ونذهب الى التلال اعتمادا على خدّ قولك فقط».

نهض الصياد بغضب وضرب المنضـــدة بقبضـة يده فانسكب ابريق الحليب فوقها .

- «ان قولي كان قويا وصحيحا في السابق لكل واحد، ويجب أن يكون كذلك بالنسبة لك ايضا».

استــدار شيخ القــرية بعيدا وخـطا الى داخل الغرفة الخلفية وعندما عاد كانت الفتاة الصغيرة تمسك بيده متوسلة .

ـ «جدي . . أرجوك أن تستمع للصياد» .

ـ «دعيني أذهب ! انه أنا من يعطي الاوامر في هذه القرية . . أنا فقط» .

ـ «وهــذا ما سوف يكــون» هتف الصياد ممسكــا به وأضاف : «ربما اكون مخطئا، ولكنني اعتقد بانه ليس هنالك وقت ليضيع، فانت بالتأكيد لا تريد أن تجازف بأرواح قومك فقط لتقول بانه لا أحد يستطيع أن يعطي الأوامر سواك» .

في أثنـاء هذه المحادثة خطا بيتر سيملنك الى الخارج ودعا الفتاة وقال بسرعة :

ـ «اسرعي الى كل البيوت، اخبري الناس بان عليهم ان يحـزمـوا كل ما يستطيعون من ممتلكاتهم للهرب الى داخـل التلال . واخبريهم ان الجرف الصخري العظيم سوف يسقط الى داخل البحيرة، واذا وصل الطوفان من البحيرة الى هنا، فان قريتكم سوف تدمر تماما» .

بنـداءات رعب متواصلة بدأت الفتاة توضح راكضة

من بيت الى اخر، وعندئذ عاد بيتر سيملنگ الى داخل البيت وكان الرجل الكبير جالسا مرة ثانية وكان من الواضح انه بدأ يقتنع وقال بهدوء اخيرا:

ـ «لقد اقنعني كلامك، فانت تعرف الجبال أفضل من القرويين الذين يعيشون في الوادي».

وفجأة عمّ اضطراب كبير في القرية، خرج الرجل الكبير الى ساحة القرية وبدأ يشرح الكارثة التي تهددهم باختصار وأمرهم بترك القرية، فحجته الخطيرة حالت دون العصيان. وفي اثناء ذلك كان قد حلّ الظلام، وكان مايكل برانك يسرع من بيت الى آخر مساعدا في حمل كل ما تستطيع عربات نقل البضائع حمله، وملاحقا الرعاة حتى خارج المروج ليسير المواشي الى داخل التايگا، جالبا البغال الى خارج الاصطبلات ومسرجا إياها الى العربات. أمّا بيتر سيملنگ فقد كان منشغلا أيضا.

كان منظر القرية في تلك الليلة غير اعتيادي، واصل الصديقان بتقديم المساعدة حيثما تحتاج، أحس بيتر سيملنگ بطاقة كبيرة نبعت فيه وبشعور من الفرح

والانـطلاق، عنـدمـا سمع هؤلاء الناس يتكلمون بلغة الام، وفجأة تقدم احد الرعاة مسرعا والعرق يتصبب منه وقال لاهثا:

- «لابد ان شيئا ما قد حدث فوق التايگا! فقد ركضت الايائـل والـدببـة مع قطيع كلاب المـاء تاركـين مجرى (الكمچك) ويبدو انها اتخذت المنحدرات مهربا لها».

وهنا شقَّ مايكل برانك طريقه بين الحشد المتزاحم وصاح:

- «هيا الآن! بسرعـة! الى الغابات!» بكى الاطفال والنساء وحاول بيتر سيملنگ أن يواسيهم وساعدهم في حمـل ممتلكـاتهم على عربـات نقـل البضائع وارشدهم بلطف الى المنحـدرات عنـد الغـابات. أمّا الرجال فقد ساعدوا الصديقين في شحن الممتلكات.

والان حانت لحظة الانطلاق فكل شيء قد حمل على العـربـات والحيوانات وتقدموا بأجمعهم باتجاه الغابة، وشيئا فشيئا اخليت القرية وانطلق بيتر سيملنگ والصياد في جولـة سريعـة للتأكد من عدم بقاء أحد في الخلف.

وفجـأة سمـع الرجلان نداءا غير واضح في مكان ما ثم اقترب هذا النداء تدريجيا، انها امرأة تنادي صغيرها:

ـ «بـيرنارد Bernard ! يا ولدي الصغير! أليس بيرنارد هنا؟» .

توقف الرجلان في ساحة القرية، فليس هنالك صوت طفل، لقد بحثوا في كل مكان، أمّا المرأة فقد انطلقت الى بيتها تفتش في كل أرجائه. ولكن من دون جدوى، اخيرا ركض بيتر سيملنگ الى نهاية القرية مناديا باسم الطفل حتى وصل الى ضفة النهر وهنالك جلس طفل صغير على الضفة الرملية الجافة العريضة مرددا من غير ان يرفع نظره عن لعبته:

ـ «أنا هنا، ماما، أنا هنا!» .

التقط بيتر سيملنگ الطفل وحينئذ أحس بلفحة ريح قارسة من نسيم بارد جدا فنظر الى النهر وصاح:

ـ «الطوفان قادم!» وبدأ يركض لاهثا بين البيوت حتى. وصـل الى المـرأة التي اختـطفت طفلهـا وضمته اليها، وعندئذ دفعها سيملنك الى الامام وحثها قائلا:

- «اركضي! اركضي! فالطوفان قادم». وهنا فهمت المرأة المنذهلة وأسرعت الى أعلى المنحدر، ولكن أين مايكل برانك؟ صاح بيتر سيملنگ عدة مرات ولكن من دون جواب. وتقدم بيتر سيملنگ الى أمام بيت شيخ القرية فوجد برانك منحنيا فوق الرجل الكبير المغمى عليه على الارض. قال الصياد مطمئنا:

- «كل شيء على ما يرام، لقد اغمى عليه ولكنه ليس بالشيء الخطير».

- «يجب ان نحمله! فالطوفان قادم» قال بيتر سيملنگ بجنون، وعلى مهل حملا الرجل الكبير بأسرع ما أمكنهما باتجاه بقية القرويين الى فوق التل، اخيرا وصلوا القمة وكانت امواج الطوفان قد دخلت الى القرية بسرعة بلا رحمة! استند مايكل برانك لاهثا الى شجرة كبيرة ونظر الى الوراء، أمواج هادرة من مياه الفيضان اغارت على الوادي برمته. وبعد دقائق قليلة التقوا ببقية القرويين الذين احاطوا بشيخهم الذي بدأ الآن يسترد وعيه، وضعه بيتر سيملنگ بلطف عرى قماشة شراع.

وعندما تعافى تماما، نظر الى القرويين، قام بعدهم. لا احد مفقود.

موطن جديد في أراضٍ غريبة

عند منتصف نهار اليوم التالي جلس القرويون قرب كهف كبير عند التلة البعيدة الذي اتخذوه لهم مهربا من السيول الجارفة في اليوم السابق، وقد اشعلوا نارا كبيرة قرب المدخل وظهر هنا وهناك دعوة الامهات لاطفالهن لينامـوا في الفـراش الذي أعدّ في داخل الكهف تحت

الصخـور. أمّـا الرجال فقد قاموا بتنظيف الفسحة أمام الكهف مستعينـين بفؤوسهم، أمّـا الرجال الذين طافوا بالمكان حول المخيم فقد كانوا يستمعون بخوف الى أي صوت غريب قرب الماشية، وفجأة كان هنالك صوت ما؟ هل هو صوت دبّ اغري بالماشية المنتشرة، تحرك اربعة من الـرجـال الى داخل الادغال الكثيفة، صوت تكسر أغصان، رفع الرجال بنادقهم وصوبوها ناحية الاغصان، انه رجل خطا الى خارج الشجر الشائك.

لقد تعثر وسقط الى الارض تحت الشجرة، لقد كان مكشوف الرأس، شعره متلبد، كان يتنفس بشدة لاهثا بانهـاك ثم تفـرس بذهـول الى المنـظر المربك. أخفض الرجال بنادقهم واقتربوا من الغريب الذي واصل النظر اليهم من دون حركة.

- «هل انتم مستوطنو الكمچك؟» همس أخيرا.

- «نعم، بالتأكيد» أجاب احد الرجال ثم توقف قليلا، لقد سمع هذا الصوت من قبل؟ وهذا الرجل الذي خطا خارج غابة الجبال البرية يتكلم الالمانية!.

- «من الذي انذركم بالطوفان؟» لهث الغريب.

لقد عرفوه اخيرا: انه «اندخي سيهوز» الرجل الذي

ترك قريتهم قبل سنتين، وبسرعة اندفعوا اليه وأعانوه من الجانبين، ثم ارشدوه الى النار ليجلس بينهم، بعدئذ وقف مايكل برانك وتفرس في وجه الرجل ثم تراجع قائلا: «اندغي سيهوز!» لقد وجدتك مرة ثانية بعد كل هذا الوقت، تعال.».

ثم قاده الى بيتر سيملنگ الذي كان يجلس على رزمته وقال:

ـ «انت لا تعرف صديقي هذا، انه مهندس تعدين، واسمه بيتر سيملنگ لقد تسلق معي فوق نهر الثلج لجبال (الچاچن ـ اولا) chagan - ola لنعيد اليك ممتلكاتك».

وعندما فتحا الرزمة نظر اندغي سيهوز اليها بتأثر صامت غير قادر على الكلام ومدّ يده الى الرجلين بشكر صامت. بعد ذلك اعطوه الطعام وشيئا فشيئا اخبرهم بقصة رحلته الخطرة الشاقة فوق جبال التانو ـ اولا وجهوده اليائسة في تلك الامسية للوصول اليهم ليحذرهم من الطوفان. بعد ذلك أخبرهم بنهاية عصابة التانگوت، وعن آثار الاقدام التي وجدها و فوجيء بأنها كانت آثار أقدام بيتر سيملنگ ومايكل برانك عندما عبرا صفوف جبال (التانو ـ اولا) وهبطا الى داخل الوادي، الان فهم

سبب اشعال اللصوص للنار في الادغال فوق البحيرة، كذلك اخبرهم عن اللص الدنكيني العملاق الذي رآه وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة قبل أن يموت . وعندما سحب الحزام الاحمر العريض من حقيبته الذي أخذه من الرجل الميت صاح بيتر سيملنك وهو ينظر الى الصياد مرتعشا :

ـ «بولانكا!» .

أخبر مايكل برانك (سيهوز) بأنهما استعادا ممتلكاته من هذا الرجل الذي عبر الجبال كقائد لمجموعة صغيرة للبحث عن الذهب .

عند حلول المساء زحف النساء والاطفال واحدا بعد الآخر الى الكهف لينـاموا تحت الاغطية وجلود الحيوانات، أمّا الرجال فقد وقفوا في دائرة حول النار.

وقرّروا أن يتناوبوا الحراسة وتجسس المكان في الجوار، وقرب المواشي. بعد أن استردّ شيخ القرية قوته ذهب ليقف مع الرجال حول النار، وكان يستمع اليهم وهم يتناقشون حول خططهم المستقبلية، فقد اقترح البعض منهم ان يستقروا على السهول العريضة لنهر اليانسي yenisei في جبال (التانو ـ اولا) مثلا، أمّا الذين

فقدوا شجاعتهم فقد اقترحوا ان يعودوا الى سيبيريا وهناك سوف يجدون عملا بالتأكيد، وهنالك طائفة صغيرة كانوا يقترحون أن يعيشوا حياة جديدة كمنقبين عن الذهب او كصائدي حيوانات لبيع جلودها أو لبيعها حيّة. عندئذ قام شيخ القرية والتمس السكوت باشارة من يده فتوقف الجميع عن الكلام فبدأ برصانة:

- «ان حزننا لم ينته بعد، والذي لابد منه هو الانطلاق للبحث عن موطن آخر في مكان آخر، ولكن على أن لا يختفي احد داخل الوحدة والانعزال. فكروا بالذي حدث (لاندغي سيهوز)! فكل من ينطلق ليقاتل وحيدا في معركة ضد البرية الموحشة سوف يهزم بالتأكيد. يجب أن نعيش معا كافراد الاسرة الواحدة الكبيرة في أثناء تجوالنا الشاق في التايگا».

توقف الرجل عن الكلام، كان الرجال يستمعون بصمت، في تلك الاثناء لم يلاحظ أحد بان بيتر سيملنگ قد ترك الدائرة حول النار وذهب ليقف عند حاشية الكهف وحيدا في الظلال، لقد بدأ يشعر بمحبة كبيرة

لهؤلاء الجماعة الصغيرة من المان الڤولگا المعزولين، فجأة أحس بواجب خفي يربطه بكل واحد يتكلم لغته نفسها، اينما يلتقيه في العالم.

نظر الى اندغي سيهوز الذي كان يجلس بعيدا عن الاخـرين وقد استقر رأسه بين يديه بتثاقل، لقد انطلق بحثا عن قاتل زوجته وقد شهد الانتقام العظيم له بوساطة العنـاية الالهية، ولكنـه الان من غير خطط، ومن دون اهداف. هل عليه أن يعود مرة ثانية الى قبر زوجته على (التسچاجا) الى بيته الذي اتت عليه النيران؟ لقد فقدت حياته كل معنى، لقد كان يشعر بعطف عميق نحو هذا الرجل. كلا، يجب أن لا يترك في حزنه هذا، فهناك فوق الحقـل مواشيه في حظيرتها ذات المروج الناعمة الممتدة، وهنالك المراعي الواسعة التي تتسع لمئات المواشي.

المرعى؟ وهنا اوسع بيتر سيملنگ خطاه بسرعة عائدا الى الرجال قرب النار، بعد ذلك لم يستطع أن يتذكر كيف انه وجد الكلمات سهلة جدا ليشرح فكرته، ثم أشار الى اندغي سيهوز وأضاف:

ـ «بيته الجديد سوف يكون بيتكم ايضا. بالتأكيد سوف يفشل وحده، ولكن بمساعدتكم سوف يكون لحياته معنى جديد» ثم اتجه الى شيخ القرية:

ـ «ما الذي تقوله يا سيدي؟ هل من الممكن لمواطنيك أن يستقروا على التسچاجا».

عندئذ تزاحم الرجال حوله، وقال شيخ القرية:

ـ «نعم، ونعيش كلنا كعائلة واحدة. على أن نبقى معنا، فنحن نثق بك» وهكذا حسم الامر.

بزغ الفجر الجديد فوق قمم الاشجار الداكنة للتايكا، وكانت النار تشتعل في الخارج، وعادت مجموعة المراقبة الاخيرة من الغابة، كان مايكل برانك يقف عند حافة الماء ناظرا الى بقايا البيوت الخربة التي ظهرت تدريجيا نتيجة تراجع الطوفان، البعض منها بقي صامدا ضد الكارثة.. ثم تراجع واستند الى شجرة شربين عملاقة، وفي تلك اللحظة تقدم بيتر سيملنگ اليه .

ـ « هل تأتي معنا الى التسچاجا عندما نتحرك؟» سأل سيملنگ. لكن برانك هزّ رأسه.

ـ «انني الآن اكبر من أن اغير طريق حياتي واصبح قرويا، فالصيد حياتي والسهول المرتفعة الجبلية المنعزلة هي بيتي».

حاول بيتر سيملنگ اقناعه لكنه قاطعه قائلا:

ـ «ان بغلي ينتظرني فوق الالتي.. يجب أن لا اهجره، اليس كذلك؟ انه رفيقي المخلص» ثم خطا الى سيملنگ مبتسما وأضاف:

ـ «يجب أن يبقى شخص ما لحماية الجبال والبرية» ثم فتح يديه فشبكهما بيتر سيملنگ واحتضنه وقال بجد:

ـ «منذ أن التقيتك، اتخذت حياتي اتجاها آخر».

قرر مايكل برانك الرحيل في اليوم نفسه، وهكذا حزم حاجياته ثم استدار الى الخلف الى بيتر سيملنگ وقال مبتسما:

ـ «في يوم ما من الان، وعندما يأتي رجل كبير الى بوابة بيتك الجديد على التسچاجا، فلا تطرده، أليس كذلك؟ فربما يستطيع أن يعتني بأطفالك، وربما يستطيع أن يعلمك أشياء قليلة أيضا» وواصل طريقه، ركض بيتر

سيملنگ بعده بخطوات قليلة وصاح :

- «هو سوف يرحب بك بفرح عظيم ويسألك ان تبقى الى الابد» .

عندما أشرقت الشمس فوق الاراضي غير المزروعة من آسيا، حمّل الرجال كل ممتلكاتهم التي انقذوها على عربات نقل البضائع وعلى ظهور البغال ودواب الحمل، لقد كان امامهم رحلة طويلة الى الخمچك ثم الينسي الى التسچاجا .

سمع الرجال أصوات اسرهم في الكهف وابتسموا لاول مرة منذ كارثة المساء السابق . لقد تنسقت افكارهم ، فانهم الان سوف ينطلقون الى مراع جديدة ويبنون بيوتهم الجديدة عند حاشية الحفيف الدائم لتايكا سيبريا .


دار الحرية للطباعة
بغداد

رقم الايـداع في دار الكتب والوثـائق
(٨٧٦) بغداد لسنة ١٩٨٩ .

السعر ٦٥٠ فلسا

